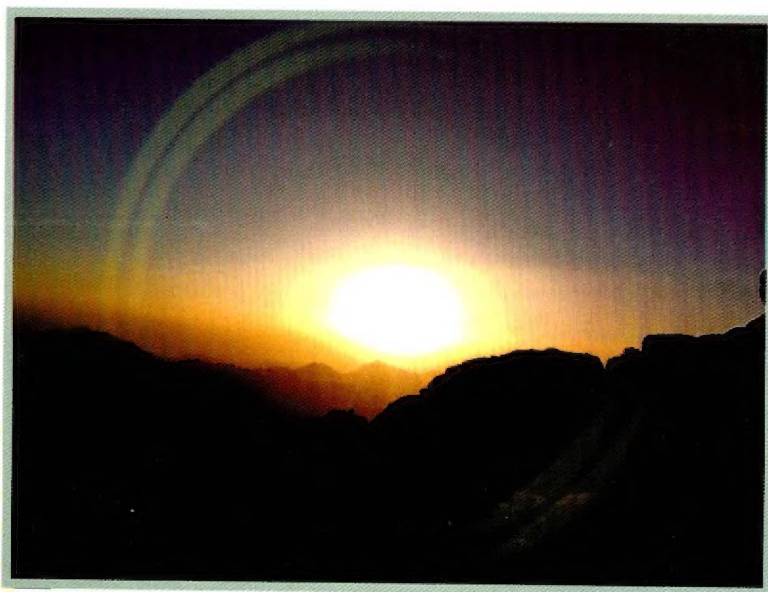
ثم
جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها

«نظرات في سورة الجاثية»



فضيلة الشيخ
د . محمد الدبيسي
حفظه الله وغفر له ولوالديه

ثم
جعلناك على شريعة من الأمر
فاتبعها

« نظرات في سورة الجاثية »

لفضيلة الشيخ

د . محمد الدبيسي

حفظه الله وغفر له ولوالديه

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٣٤هـ

ينايـــر ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.[1]

مع ما نحياه من أحداث متلاحقة في هذه الأيام ، وما يحدث من صد للناس عن الشريعة واستهزاء بالداعين لاتباعها، كان ينبغي النظر في ما نزل من كلام الله تعالى وسنة النبي ﷺ في الأمر باتباع الشريعة لنتبين الطريق للخروج من هذه المصائب والفتن التي حلت وكذلك لنتبين كيف يتعامل المرء مع هذا الواقع المر الذي ظهرت رؤوسه كرؤوس الأفاعي؛ ليفهم المؤمنون عن الله تعالى ذلك، وليتدبروا، وليغيروا وجهتهم في الفهم والعمل والسلوك والدعوة إلى الله، وألا يقصروا ليلهم ونهارهم بأن يقوموا لله مثنى وفرادى حتى تستقيم أحوالهم ويرتفع البلاء النازل عليهم.

وقد ألقى **فضيلة الشيخ /محمد الدبيسي** منذ سنتين تقريبًا سلسلة من الخطب تتعرض لهذه القضايا وهي التي نعرضها في هذه الرسالة. وقد لخصت تلك الخطب الطريق لتحقيق ذلك في أمرين :

---

(١) حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٢٧/٣) والذهبي في المهذب (١١٤٢/٣).

الأول: نظرات في حقيقة الفتنة

وهي القضية المهمة التي ينبغي أن يتنبه لها أهل الإيمان. ففي وسط هذا الكم الهائل من التشويش والتلفيق والتزييف والتضليل وقلب الحقائق، والاتهامات الباطلة والدعاوى الكاذبة، تتوه القضية الأصلية، التي ينبغي لكل أحد أن يهتم لها وأن يرى مراد الله تعالى فيها.

وهذه القضية هي ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **(..فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيَرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفَاءِ الراشِدينَ المهديِّينَ ، تمسكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجِذِ)** [1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/ ١١٩): حسن، إسناده لا بأس به. وقال ابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٢/ ١١٦٤) : ثابت صحيح. ولفظه (قال عبد الرَّحمن بن عمرو السُّلَميّ وحُجْر بن حُجْر : أَتينَا العِرباضَ بْنَ سارِيَةَ رضي الله عنه وهو ممَّن نَزل فيه : {ولا عَلَى الَّذين إِذَا ما أَتَوْكَ لِتحْمِلَهم قلتَ لا أَجدُ ما أَحمِلُكُم عليه } [التوبة: ٩٢] فسلّمنا ، وقُلنا: أَتيناكَ زائرِيْنَ ، وعائدِيْنَ ، ومُقْتَبِسَيْن ، فقال العرباضُ : صلى بنا رسولُ الله ﷺ ذات يومٍ ، ثمّ أقبل علينا بوجهه ، فوعَظَنا موعِظةً بَليغةً ، ذَرَفتْ منها العيون ، ووَجِلت منها القلوبُ ، فقالَ رجل : يا رسولَ الله ، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ ، فماذا تَعْهدُ إلينا ؟ قال : «أُوصيكم بتقْوى الله ، والسَّمعِ والطاعة ، وإنْ عَبْدًا حبشيًّا ، فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيَرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفَاءِ الراشِدينَ المهديِّينَ ، تمسكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجِذِ ، وإياكم ومُحدثاتِ الأمورِ ، فإنَّ كلَّ مُحدثَةٍ بدْعةٌ ، وكل بدْعَةٍ ضَلاَلَة).

وقد قال النبي ﷺ ذلك ليتفطن المؤمنون لحقيقة تلك الفتن والخلافات التي ستقع، وأنها واقعة بمقدور الله تعالى، وأنها ترفع بما أمر به ﷺ: (**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**) وذلك هو الامتحان والمحك الذي يُمتحن به المؤمنون اليوم، فهل عندما يحاسبون أنفسهم، ويراجعون ما هم عليه من دين، هل يرون أنهم في طريق اتباع الشريعة من كتاب الله وسنة النبي ﷺ، أو أنهم قد بعدوا عنها، وتنكبوا طريقها، وراغوا عن سبيلها، أو حاولوا أن يوفقوا بين طريقها وبين الطرق الملتوية التي لا توصل إليها، والتي في نهاية المطاف تُبعد عنها، وتصيب المؤمنين بالغفلة عن اتباعها ؟

الثاني : نظرات في سورة الجاثية

وهو ما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]

فهذه الآيات وما قبلها وما بعدها من بداية السورة إلى نهايتها، كان موقعها فريدًا في هذه الأحداث التي نمر بها، فهي تبين لنا حقيقة الواقع الذي نحياه وكأنها نزلت اليوم، وذلك من بديع وإعجاز القرآن الكريم، كلام الله الخالد لكل زمان ومكان، الذي بيَّن هذه الأحوال وبين أوصافها وأحكامها.

فقد بينت هذه الآيات الداء، ووضعت الدواء، ووصفت الحال الذي يعيشه المسلمون، وكذلك ما يتعلق بغيرهم وبينت طريق المعاملة الأمثل لهم في تلك الأحوال، وبينت عاقبة المؤمنين، وعاقبة غيرهم، وبينت كذلك حال أولئك الظالمين، الذين بعضهم أولياء بعض، وأن تلك الولاية زائلة؛ لأن ولاية الظلم ساعة، تنتهي بانتهاء ما اجتمع عليه الظالمون، أما المؤمنون فقد اجتمعوا على الله تعالى، فهم متواصلون إلى أن يلقوا ربهم جل وعلا في الآخرة.

وعند الكلام على فقه هذه الأحداث التي نحن فيها اليوم فإننا ننبه على أن معظمه يخضع لقواعد المواءمة بين الشريعة وبين الواقع المر، لذلك فإن أهل العلم الأثبات هم الذين يوضحون المصالح والمفاسد فيرجحون حينًا الأخذ بأخف الضررين اتقاء للأشد، وفي حين آخر يأخذون بدرء المفاسد التي تقدم على جلب المصالح، أو بتقديم أَوْلى المصلحتين عند التعارض. وهذا ما يجب أن يفهمه المرء المطالع لآيات سورة الجاثية؛ فيتفقه ويفهم، ويتعلم ويعقل عن الله تعالى تلك الآيات البينات، وما تشير إليه، وما تأمر به؛ ليكون كتاب الله طريقه، ومصباحه، ونبراسه الذي يسير عليه.

وبعد:

فإننا نرجو العذر من القارئ على ما قد يرد من أخطاء في هذه الرسالة، وما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا. نسأل الله تعالى أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه؛ إنه سميع الدعاء.

مسجد الهدي المحمدي

غرة ربيع الأول ١٤٣٤ هـ

الفصل الأول:

نظرات في حقيقة الفتنة

كيف ينظر المرء إلى الفتن الواقعة ؟

بيَّن ذلك عدة أحاديث أخبر بها رسول الله ﷺ، وهي التي نعرضها ونربط بينها – على قدر ما يفتح الله تعالى – لتتبين الصورة لأهل الإيمان.

أولها: حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن العرباض رضي الله عنه قال: **(صلى بنا رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يومٍ ، ثمّ أقبل علينا بوجهه ، فوعَظَنا موعِظةً بَليغةً ، ذَرَفتْ منها العيون ، ووَجِلت منها القلوبُ ، فقالَ رجل : يا رسولَ الله ، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ ، فماذا تَعْهدُ إلينا ؟ قال : «أُوصيكم بتقْوى الله ، والسَّمعِ والطاعة ، وإنْ عَبْدًا حبشيًّا ، فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيَرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفَاءِ الراشِدينَ المهديِّينَ ، تمسكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجِذِ ، وإياكم ومُحدثاتِ الأمورِ ، فإنَّ كلَّ مُحدثَةٍ بدْعةٌ ، وكل بدْعَةٍ ضَلاَلَة)** (١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/ ١١٩): حسن، إسناده لا بأس به. وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١١٦٤) : ثابت صحيح. ولفظه (قال عبد الرَّحمن بن عمرو السُّلَميّ وحُجْر بن حُجْر : أَتينَا العِرباضَ بْنَ سارِيةَ – رضي الله عنه – وهو ممَّن نَزل فيه : {ولا عَلَى الَّذين إِذَا ما أَتَوْكَ لِتحْمِلَهم قلتَ لا أَجدُ ما أحمِلُكُم عليه } [التوبة: ٩٢] فسلّمنا ، وقُلنا: أَتيناكَ زائرِينَ ، وعائديْنَ ، ومُقْتَبِسَيْن ، فقال العرباضُ : صلى بنا رسولُ الله ﷺ ذات يومٍ ، ثمّ أقبل علينا بوجهه ، فوعَظَنا موعِظةً بَليغةً ، ذَرَفتْ منها العيون ، ووَجِلت منها القلوبُ ، فقالَ رجل : يا رسولَ الله ، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ ،

وقد حدّد فيه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أصل القضية: (**فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيَرى اختلافًا كثيرًا**) والساحة كما ترون ممتلئة بالاختلافات، وهي اختلافات لا هي على عقيدة الإسلام، ولا على عبادته، ولا على أفكاره وآرائه، أو على مبادئه وأهدافه، وإنما على أهواء وتفرق القائمين على هذه الاختلافات. **فكلٌ يرى أنه الصحيح، وكلٌ يرى أنه يلتزم ما يكون سببًا لمصلحة الدين والإسلام**، وأنه يلتزم ما يمكن أن يحل مشاكل المسلمين، وأن يرفع البأس عنهم، هذا مع إحسان الظن بهم، أما مع سوء الظن، فتلك التحزبات والانقسامات لا توحي إلا بالأهواء، ولا توحي إلا بأن كل هوى متبع، وأن كل أحد يرى رأيه هو الصواب.

حينئذ ينبغي أن تخلُص الأهواء، والآراء، والأمزجة إلى النظرة الصحيحة التي حددها النبي ﷺ للخروج وللخلاص من هذا الواقع، ولكن غفلتنا قد أصابتنا بمصيبة، وهي: أننا تركنا الطريق الذي حدده النبي ﷺ وتوخينا الحل فيما هو معروض من آراء البشر !

فماذا تَعْهدُ إلينا ؟ قال : «أُوصيكم بتقْوى الله ، والسَّمعِ والطاعة ، وإنْ عَبْدًا حبشيًّا ، فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيَرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفَاءِ الراشِدينَ المهديِّينَ ، تمسكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجِذِ ، وإياكم ومُحدثاتِ الأمورِ ، فإنَّ كلَّ مُحدثَةٍ بدْعةٌ ، وكل بدْعَةٍ ضَلاَلَة».

البحث عن الحل في آراء البشر

فرأينا الحل في الشرق والغرب، والديمقراطية والليبرالية، وتبنى المسلمون تلك القضايا، وظنوا أن ذلك يساعد الإسلام والمسلمين.

وغفلنا عن أن غرض المجرمين والمشركين وغيرهم من أصحاب هذه الدعوات، **ليس إلا أن يطمسوا هوية هذه الأمة**، وأن يُنسوا المؤمنين بالذات القضية الأصلية في رجوعهم إلى المنبع الصافي، إلى الوحي، إلى كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين؛ لأن كلام الله تعالى، وسنة النبي ﷺ، كلاهما وحي من الله جل وعلا.

وقد عمد هؤلاء على شغل أهل الإيمان عن هذه القضية؛ لأن غيرهم قد نسي، وظن أن الخلاص والفتح في تلك الشعارات التي يرددها الغرب، والتي لم تقم بها إلى اليوم لا حضارة في الغرب ولا في الشرق، بل كل ذلك آيل مرة أخرى إلى السقوط، كما رأينا من قبل، وكما نرى في هذه الأيام.

والأمر الثاني بعد طمس الهوية، وإنساء المؤمنين هذه القضايا، هو **استمرار بقاء المسلمون متخلفين، محتاجين إلى الأفكار والآراء من الشرق والغرب**، كما هم محتاجون - مع غناهم- إلى الشرق والغرب فيما يتقدمون به في حياتهم الدنيا، أو ما يقفون به أمام هذه الغزوة التي بعد أن كانت غزوة عسكرية في الحروب الصليبية صارت اليوم غزوًا فكريًا عسكريًا، فهو غزو فكري على أسنة

الرماح، تُفرض به تلك الآراء والاعتقادات والمفاهيم على أهل الإيمان، ثم إن أهل الإيمان بدأوا يستجيبون لهذه الدعوات ويرددونها، ولا يفرقون بين ما يمكن أن يكون حلاً مرضيًا لله تعالى، وبين أن يكون أمرًا مستوردًا ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، كما هو الواقع الذي نحياه اليوم.

والأمر التالي، هو إصابة المؤمنين بتلك الغفلة الشديدة التي حلت عليهم، فصاروا لا يميزون بين مراد الله تعالى ورسوله ﷺ، وبين ما يراد بهم، وما يراد منهم، وما يكرس لهم من تبعية واستعباد، خاصة عندما **يرفعون راية الاستسلام الفكري**، لم يبق شيء بعد ذلك يسلمونه إذن! قد سلموا كل أمورهم، وتدبيرهم، واقتصادهم، وغير ذلك إلى الغرب، فلم يبق إلا أن ترفع الراية البيضاء باستسلام المؤمنين، ونومهم في المطبات التي صنعها لهم أولئك!

احفظ إذًا هذه الثلاثة التي يريدونها: طمس هوية الأمة، استمرار بقاء المسلمون متخلفين ومحتاجين إليهم، أن يرفع المسلمون راية الاستسلام الفكري.

زمن الرويبضة والسنوات الخداعة

ويبين الحديث التالي الذي أخبر به النبي ﷺ هذا المعنى، قال ﷺ: (**بين يدي الساعة سنون خداعة، يكذب فيها الصادق، ويصدق فيها الكاذب، ويخون فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، وينطق فيها الرويبضة**، قيل: وما الرويبضة يا

رسول الله؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة، أو الرجل لا يُؤبه له يتكلم في أمر العامة)[1].

قد أتى إذن ذلك اليوم الذي ترى فيه الأمين وقد خونوه، والصادق وقد جعلوه كاذبًا، والكاذب وقد جعلوه صادقًا، ونشروا الكذب والبهتان، وهو ما يعاني منه المؤمنون اليوم.

لقد رأى المؤمنون بأمّ أعينهم ذلك في هذه الأيام؛ **حيث يلصق بهم الاتهامات، وينسب إليهم ما لم يقولوا، وإن قالوا يحمل على أسوأ احتمالاته، وإن قال غيرهم فكلامه جميل ومقبول، ويحمل على الرأس والعين، أما إن قالوا هم، فقولهم باطل، وقولهم كذب**، حتى ولو كانوا صادقين في ظاهر الأمر، يقال: هذه سياسة، وهذا كلام يخفون به ما يعتقدون، وكلام يظهرونه ويخفون غيره، وهكذا.

(**وينطق فيهم الرويبضة**) الرجل الذي لا يُؤبه له، ولا قيمة له- وكل أحد من هؤلاء ينبغي أن نعلم أنه لا قيمة له فعلاً- لأنه لا قيمة لأحد إلا بالإيمان،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١ ، رقم ٧٨٩٩) ، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٩ ، رقم ٤٠٣٦) ، والحاكم (٤/ ٥١٢ ، رقم ٨٤٣٩) وقال: صحيح الإسناد ، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (١٥/ ٣٧) : إسناده حسن، ومتنه صحيح. ولفظه : (سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدّق فيها الكاذب ، ويكذّب فيها الصادق ، ويُؤتمن فيها الخائن ، ويُخون فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة . قيل : وما الرويبضة ؟ قال : الرجل التافه يتكلم في أمر العامة).

واتباع الدين، وأن المؤمنين أنفسهم يرفعهم ربهم درجات بإيمانهم: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍۢ ﴾ [المجادلة: ١١]، وهذه الدرجات التي يرفعها الله تعالى للمؤمنين، وأولي العلم منهم خاصة، **إنما هي بإيمانهم وعلمهم، ومن ثم فإن هؤلاء ينبغي أن نعلم ونستيقن أن هؤلاء الرويبضات في نهاية الأمر والمطاف لا يساوون شيئًا**، بل هم كما ذكر عنهم الرسول ﷺ: هم رويبضات، هؤلاء الذي بين النبي ﷺ أنهم يأتون ليتكلموا في أمور العامة، وليتكلموا بما شاءوا؛ ليرفعوا فلانًا، ويحطوا فلانًا، وليبينوا فلانًا، وليجلسوا على كراسي الرأي والتدبير والتفهيم والتعليم، وكذلك ليحولوا اتجاه الرأي والفكر بما يتناسب مع جهلهم، وهواهم، وضغائن أنفسهم، وسواد قلوبهم على الدين وأهله.

لذلك ينبغي أن يعلم المسلمون أنهم سيرون من يقف لهم، ويعترض عليهم ويرفع شعارات أخرى، ويندد بتصرفاتهم، ويسيء إليهم وإلى دينهم وإلى اعتقاداتهم، ويظهر تخلفهم كذبًا وزورًا وبهتانًا، وإلصاقًا للتهم بهم من غير دليل، **وحتى لو لم يكن لهم تهم اخترعوا لهم تهمًا يلصقونها بهم، إلصاقًا لهذه التهم بالإسلام نفسه؛ وتخويفًا للناس من الرجوع مرة أخرى إلى الدين الحنيف**. لذلك ينبغي أن يكافح المسلمون هؤلاء، وأن يقفوا بالرأي والفكر في هذه المسائل لكل أحد يعترضهم.

وقبل ذلك، فالمؤمنون ينبغي أن يحملوا كلام هؤلاء على أمرين: **الأول:** أن أولئك هم الرويبضة في تلك السنين الخداعة، وأن هؤلاء لا تستقيم أعمالهم مع كلامهم، وأنهم مثل غيرهم ممن كان ويكون. **الثاني:** أن هؤلاء لو تمكنوا، فإن أول أحد يسجن بسببهم هم المسلمون، فهم حزانى اليوم؛ لأن المسلمين قد خرجوا من السجون والمعتقلات، ويعيرونهم بأنهم يومًا ما كانوا لا يستطيعون أن يفتحوا أفواههم، ولا أن يتكلموا؛ وأنهم كانوا في تلك الحال السيئة من المهانة والإهانة التي يود أولئك أن تبقى للمؤمنين، فما بالك بهذه الأجناس من الخلق إن هم تمكنوا مرة أخرى ؟!

طريق المسلمين للإصلاح هو اتباع سنة النبي ﷺ

وهي قوله ﷺ في الحديث الأول: (**فعليكم بسنتي**). وقد نسينا أن الحل في سنته ﷺ وتطوع الكثيرون لأن يمجدوا حلولاً أخرى لم تكن في عهده ﷺ وتشبثوا بها، ورفعوا أعلامها، ومن لم يرفع لها أعلامًا حاول أن يلتصق بها ولو كان في نهاية القطار، على أن ذلك هو الذي ينبغي أن يسجل به اسمه في تاريخ هذه الأمة، من أنه كان يومًا من المخلصين لها من نير الاستبداد، ومن نير الظلم والفساد.

ولكن ما ينبغي أن يفهمه المؤمنون مرة أخرى، وأن يعيه المؤمنون كافة، وأن يكون ديدنهم، ودعوتهم، وأن يكون سلاحهم الذي يواجهون به

أنفسهم، ويواجهون به غيرهم: **أن الخلاص لهم، ولأمة الإسلام، في الرجوع مرة أخرى إلى اتباع سنة النبي ﷺ، وإلى اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ﷺ.**

فطريق الإصلاح للمؤمنين بالذات ليس الشرق أو الغرب، وإنما هو اتباع النبي ﷺ. واتباع الناس للنبي ﷺ له غصة في حلوق أولئك، يصيبهم بالمصائب السوداء، أن يروا الناس وقد تشبهوا بالنبي ﷺ ولو في ظاهرهم أو لباسهم وزيهم، حتى أن العديد من دول الغرب حرم النقاب، وبناء المآذن، وغير ذلك مما يصيبهم بهذا الهلع لمجرد رؤية مفردات الدين التي لا تمثل أصوله، فما بالك عندما يتمثل المؤمنون أصول دينهم، ويرجعوا إلى اتباع نبيهم!

فقد علم الكفرة قبل المؤمنين أن الإسلام هو العدو الذي اتضحت معالمه اليوم، **وقد قالوها صريحة: إن العدو الباقي لهم هو الإسلام**، فهم يعلمون أكثر من المؤمنين أن في رجوع المسلمين للإسلام ولاتباع النبي ﷺ الخطر الأعظم عليهم، وانتهاء دولهم، ورفع الاستعباد والظلم عن بلاد المسلمين، واحتفاظ المسلمين بثروتهم وبلادهم، وأن يكونوا أندادًا لهم.

لذلك فهم يعملون ليل نهار بكل الوسائل غير المشروعة، ليظل المسلمون في حالة الغفلة والتشوش، وهم لا يتورعون عن تزييف الوقائع وقلب الحقائق لاستمرار ذلك.

وقد فهمنا كيف يكون موقفنا، وكيف نرد، عندما ينطق الرويبضة الذي لا قيمة له، وعلمنا كيف نزن الكلام بميزان شرع النبي ﷺ، وفي النهاية نقول لهم: **إن ديننا هو اتباع النبي ﷺ وأن نتسنن بسنته ، ولو كره المجرمون، ولو كره المشركون، ولو كرهت هذه الكائنات المنحطة** من خلق الله تعالى -لا تسمى إلا باسم الكائنات المنحطة المنحرفة- الذي قال عنهم ﷺ: (الرويبضة).

والحديث الثالث الذي نربط به أطراف الكلام، هو حديث الفرقة التي تحدث بين المؤمنين والتي بيّنها النبي ﷺ بقوله: **(ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة، قال النبي ﷺ: هي الجماعة)** (١) وتحمل الجماعة على السواد الأعظم من أهل الإيمان، لا على السواد الأعظم من أهل مخالفة الإيمان والقيام في وجهه، أو هي قوله إن صح: **(ما أنا عليه اليوم وأصحابي)** (٢) وهذا الذي ينبغي أن يتعلمه المؤمنون اليوم، أنه لن يعود

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٢ ، رقم ٣٩٩٢)، وأخرجه الطبراني (١٨/ ٧٠ ، رقم ١٢٩) ، وابن أبى عاصم في السنة (١/ ٣٢ ، رقم ٦٣) ، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٠١ ، رقم ١٤٩)، وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥) : صحيح مشهور في السنن والمسانيد، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٢٧): إسناده لا بأس به، وقال السخاوي في الأجوبة المرضية (٢/ ٥٧١): رجاله موثقون.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٢١٨ ، رقم ٤٤٤) ، والطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٧ ، رقم ٤٨٨٦) ، وفي الصغير (٢/ ٢٩ ، رقم ٧٢٤) ، والضياء في المختارة (٧/ ٢٧٧ ، رقم ٢٧٣٣)، وقال ابن

إلى هذه الأمة رشدها، ولن يعود إليها صلاحها، ولن تعود إليها قيادتها، ولن يرتفع أمرها، ولن يعلو خطرها وشأنها، إلا بأن يعودوا إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

والمجادلون اليوم في هذه القضايا منهم كثير من أهل الإيمان أنفسهم. النبي ﷺ وضح لهم الطريق، وأنهم إن زاغوا عنه فإنه كما قال في **الحديث التالي: (تركتكم على المحجة البيضاء -يعني على الطريق البيضاء- ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك)** [1] لا يزيغ عن هذه المحجة وذلك الطريق إلا سيهلك عندما يروغ عن هذا الطريق يمنة أو يسرة، ولذلك ينبغي أن يكون في خلد المؤمنين أن الجماعة التي ينبغي أن يلتزموها هي السواد الأعظم

تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥) : صحيح مشهور في السنن والمسانيد، وقال شيخ الإسلام أيضًا في مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧١): مشهور، وقال ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (٨/ ٩٧): محفوظ.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦ ، رقم ١٧١٨٢) ، وابن ماجه (١/ ١٦ ، رقم ٤٣) ، والحاكم (١/ ١٧٥ ، رقم ٣٣١) . والطبراني (١٨/ ٢٥٧ ، رقم ٦٤٢)، وقال السيوطي في الجامع الصغير (٦٠٩٦): صحيح . وقال الشوكاني في الفتح الرباني (٥/ ٢٢٢٩): ثابت ورجاله رجال الصحيح. بلفظ (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) .

الذي قال فيه ﷺ: (لا تجتمع أمتي على ضلالة) [1]، أو هم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، أو هم خير القرون الذين قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيهم: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) [2] ولم يدر أكررها مرتين أم ثلاثًا.

لذلك ينبغي أن يراجع المؤمنون أنفسهم ، وأن يقفوا تلك الوقفة ليتفكروا مرة أخرى كيف الخروج، وكيف الرجوع، وكيف الخلاص، **لا أن يتيهوا مع التائهين، ولا أن يساقوا مع القطيع السائر لا يدري إلى أي مكان يساق، أو إلى أي فكر، أو بأي فكر يقاد**، وبأي زمام يأخذ؟ أبزمام الدين هم يدعونك إلى الله، أم بزمام التفلت من هذا الدين الذي صاروا إليه يشوشون عليه، ويدفعون الناس عنه، ويرفعون راية محاربته وتشويهه ؟!

وأحسنهم نفاقًا أولئك الذين يرفعون تلك الرايات دفاعًا عن الدين، ألا تمس صورته الجميلة، وألا يصاب بأعمال المسلمين، **وهم في نفس الوقت أخبث الناس، حيث لا يهمهم أن يدافعوا عن صورة الدين، ولا عن آراء الدين، ولكنهم**

---

(١) أخرجه الحكيم (١/ ٤٢٢)، والحاكم (١/ ١٩٩، رقم ٣٩١) وصححه، وقال السيوطي في الجامع الصغير (١٨١٨) : حسن، ولفظه: (لا يجمع الله أمر أمتي على ضلالة أبدًا).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٤، رقم ٤١٣٠)، والبخاري (٢/ ٩٣٨، رقم ٢٥٠٩)، ومسلم (٤/ ١٩٦٢، رقم ٢٥٣٣)، والترمذي (٥/ ٦٩٥، رقم ٣٨٥٩) وقال : حسن صحيح .

يلبسون الحق بالباطل؛ ليروج هذا الباطل على أهل الإيمان، وليبقى المؤمنون مخدوعين كما هم في هذا السبيل الذي صاروا فيه، ورفعوا رايته، ونسوا تلك الراية العظمى التي يجب أن يستظلوا بظلها، وأن يقفوا تحتها، وأن يرفعوا لواءها، وأن يسيروا بسيرها، فحيث كانت ساروا، وحيث وقفت وقفوا، وإنما هم مأمورون بذلك لصلاح أنفسهم ودينهم ودنياهم، وآخرتهم، قبل أن تصلح أحوال الناس وأعمال الناس، وقبل أن ترتفع راية الإسلام.

فراية الإسلام لا ترفع بأولئك الذين لا يرفعون راية النبي ﷺ، ولا ترفع بأولئك الذين قصروا في فهم مراده، وحاولوا التلفيق والجمع بين الإسلام وغيره من الآراء، والاعتقادات، والفرق، وحاولوا أن يوفقوا هذا التوافق العجيب بين الشرع الإسلامي الحنيف وبين غيره من موضوعات البشر، أولئك ما وصلوا إلى الدين، ولا وصلوا إلى الدنيا، وإنما هم - كما قيل - كالغراب.

طريق الخلاص إذًا يتلخص في جزأين، الجزء الأول: (**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ**) أي أن يستمسك بها المرء استمساكًا شديدًا، كالذي يضع بين نواجذه – مؤخر الأسنان في الفم– أن يعض عليها بها، لا أن يتبعها فقط، بل كما يقول ﷺ : (**عضوا عليها بالنواجذ**).

والجزء الثاني: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة) إن كل أمر في الفتن التي تهل على المؤمنين هذه الأيام، وقبل، ومن بعد، لا بد وأن تقاس بمقياس النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– الذي ذكر، حيث إنه أكد حينئذ أن ما يخالف هذا الهدي هو بدعة، ولا يتأتى من وراء البدعة خير، وإن الإتيان بالبدعة، أو القيام بها والدعوة إليها، إنما هو تضييع للسنة في نفس الوقت، فما اتبعت بدعة إلا وضيعت سنة، ومن ثم فإن المرء بين أمرين، بين بدعة مستحدثة وسنة تمحى بسبب اتباع البدعة، إذ لا يتسع الزمان، والقلب، والعقل لأن يجمع بين البدعة السيئة والسنة الحسنة الواردة عن النبي ﷺ، وخلفائه الراشدين، ولذلك ينبغي ألا يكون هذا الأمر شديد الخطورة في محل التفريط من أحد وإلا خرج عن المحجة البيضاء، ومن ثم نشأ الضلال الذي لازم هذه القضايا.

نقول إذًا للسائلين عن طريق الخروج من الضلال اليوم، والسائلين عن الرد على أولئك المضلين الذين يضلون ولا يهدون، الذين يضللون الناس ولا يهمهم، أولئك المحرفين المغالين في انحرافهم وبعدهم عن النبي ﷺ يقال لهم: **(تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله وسنتي)** (١).

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٢، رقم ٣١٩) وصححه. وأخرجه الدارقطني (٤/ ٢٤٥) وقال ابن حزم في أصول الأحكام (٢/ ٢٥١): صحيح.

الإحسان دليل سلامة الاتباع

وقد يقول القائل: كل يدعي وصلاً بليلى. كل يقول: أنا متبع للكتاب والسنة، ولكن الأصل في الاتباع كما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ **وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ** ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فقضية الاتباع هي إذاً: **الاتباع بالإحسان**، أن يتبع الوارد عن النبي ﷺ وعن الله تعالى، وكيف طبقها السلف الصالحون، لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ** ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وكأنه قيد الإحسان في الاتباع حتى لا يقول كل أحد: أنا متبع، لا، إنما يظهر الاتباع الحق بالإحسان في هذا الاتباع، بأن يكون محسنًا في اتباعه، أي أن يكون على غاية الإحسان الصحيح الحق باتباع أولئك، كما قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [هود: ٧] وقوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الملك: ٢] سواء كان الإحسان بمعنى أنه يتبعهم الاتباع المؤدي إلى القيام بأمر الله وأمر النبي ﷺ، لا قيامًا سيئًا كما يحدث اليوم، أو أنهم اتبعوهم بإحسان على أن الإحسان كما ذكر عن النبي

ﷺ لما سئل عن الإحسان وهو المراقبة لله تعالى: (**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**) (١).

لذلك فواجب المؤمنون اليوم، هو اتباع النبي ﷺ بهذا الحال، أن يعبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكن كذلك أي لم يكونوا مشاهدين لربهم ، فهم مراقبون له سبحانه وتعالى، إذًا هم بين المشاهدة والمراقبة، وبين أن يكون عملهم على أحسن الأعمال التي لا تصد عن سبيل الله تعالى، بل **بأن تحبب الناس في الله جل وعلا، وتحبب الناس في النبي ﷺ، وتحمل الناس بأحسن المحامل على سنته** ﷺ.

بأن يكون المرء محسنًا في ظاهره، وباطنه، وعمله، وأن يرى أنه بذلك العمل، إنما يقوم بأدنى شيء من حق الله وحق الرسول ﷺ عليه، ألا يصد به عن سبيله، وألا يكره الناس في دينه سبحانه وتعالى، بل أن يكون مثالاً حسنًا لما جاء به النبي ﷺ، وذلك المثال الحسن هو الذي ينبغي أن يكون شعار المؤمنين في الاتباع، وهو ملتزم فيه إذًا بقول أهل العلم الأثبات الذين لا يبددون، الذين يحملون الناس على محبة الله ورسوله، الذين يضعون في قلوب الناس تلك المحبة التي تأخذهم إلى الله تعالى، لا تفرط بهم فيها، وتلك المحبة التي تعصمهم من أن يقعوا فيما يكون سبب هلاك الناس، أو سبب القيل

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩).

والقال، أو سبب الوقوع في أعراضهم، أو سبب الوقوع في الإسلام وأهله، وهذه مصيبة رأيناها في المتكلمين عن الإسلام اليوم.

ذلك ما ينبغي أن يكون فيه المرء على أحسن حال ممكن: **من المعاملة، والعبادة، والاعتقاد، والسلوك، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ، فلا بد أن يكون فيه رفيقًا حليمًا عالمًا، أن يأمر بالمعروف بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر بالرفق واللين، وأن يكون صورة حسنة لذلك، حينئذ يتحقق فيه الاتباع المرجو عندما يكون مرتبطًا بأهل العلم في تبيين خطواته، والقيام بما يلزم نحو الدين وأهله.

الفصل الثاني:

نظرات في سورة الجاثية

بعد تلك النظرات التي أشرنا إليها في الفصل الأول والتي كانت مقدمة لازمة لما نتعرض إليه في هذا الفصل من آيات سورة الجاثية، نتبين الآن كيف عبرت آيات القرآن الكريم عن ذلك الواقع الذي نحياه، وذلك المنعطف الذي نحن فيه في هذه الأيام، وكذلك كيف بينت المصير الذي نصل إليه، وذلك دليل إعجاز هذا القرآن، الذي ينبغي على كل أحد أن يتأمل فيه، وأن يتذكر ويتعظ به، وأن يكون زاده الذي يشرح الله تعالى به قلبه، وينير به طريقه، ويسلك به إلى سبيل الرشاد.

قال الله تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الجاثية: ١ - ٨].

إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ [الجاثية: ١٨- ٢٠].

ومختصر هذه الآيات أنها بدأت بتبيين آيات الله تعالى المتلوة في كتابه والمشاهدة في كونه، ثم توعدت من كذَّب بهذه الآيات من الرويبضة وغيرهم بالعذاب ثم بينت حال المؤمنين المنادين بالشريعة المتبعين لها، العاضين عليها بالنواجذ، المتحققين بالإحسان فيها وبينت أنهم المتقون أولياء الله تعالى المتمايزون عن أولئك الظلمة المنادين بإقصاء الشرع الموالين للظلمة أمثالهم.

وقد أظهرت الآيات طريقة هؤلاء الظلمة ومبادئهم ودعاويهم وفندتها أعظم تفنيد وحذرت المؤمنين المتقين من اتباع أهوائهم أو الميل لشيء مما هم عليه. ثم بينت أيضًا العاقبة الحسنة للمؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة وعاقبة أولئك الظلمة في الدنيا والآخرة.

ولن نستطرد بشرح الآيات كلها، أو بالتوسع في شرحها، فهي آيات طويلة، ولكن على قدر الوسع، نبين بعض المعاني الجميلة في الآيات حتى يحب المرء كلام الله تعالى، وحتى يتبين من تفسيرها الواقع الذي نحن عليه بما هو مفيد لأهل الإيمان، وحتى يعيد قراءة هذه الآيات قراءة المحبة والتدبر، قراءة الفهم عن الله تعالى، قراءة أنه مخاطب بهذه الآيات ليعرف منها ما يسارع

إلى تحقيقه، ولتكون هذه القراءة هي المنهج الجديد للمسلم في تلاوة آيات القرآن الكريم.

آيات الله المتلوة والمشاهدة لمن يُعمل العقل

مقدمة هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن الكتاب الذي يجادل فيه اليوم أولئك المجرمون، ولا يريدون تطبيقه، ولا العمل به، ويكذبون، ويلفقون على من يحاول أن يرفع عقيرته ليقول هذا كتاب الله الذي يجب أن يتبعه الناس، تبين **أنه تنزيل من الله تعالى**، وكان من المفترض أن يقال في السياق: هذا الكتاب منزل من الله، ولكنه قال ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ مباشرة من الله؛ ليقطع الطريق على أن هذا الكلام إنما هو من الله نازل لا مرية في ذلك ولا شك لأولئك المشركين في مكة، وهؤلاء الفسقة المسلمين اليوم الذين يتبعون المشركين في مكة، ويتبعون المجرمين شرقًا وغربًا، ليقول لهم: إن هذا الكتاب تنزيل من الله.

والأمر الثاني: وكأنه يشير إلى أولئك الذين لا يتدبرون، أو ينكرون أن هذا تنزيل، فقال لهم: لا، هو تنزيل من الله، وهو ما يقال عليه في البلاغة: تنزيل العالم منزلة المنكر الذي لا يعلم، هو يعلم أن ذلك من الله لكنه يقول له تنزيل من الله، يشير إليه بأنك لا تصدق، وأنت تعلم أنه من الله.

قوله: ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ أضافه إلى اسم الجلالة ليميز خطره، وعظم شأنه، ولزوم اتباعه، وأنه لا يجوز لأي أحد أن يخرج عنه، لماذا؟ لأن هذا الإله -كما ستأتي الآيات - هو الإله الحق، وهو الخالق الذي يجب أن يعبد، وهو الإله الذي أظهر لهم الآيات التي تبين لهم وجوب الإيمان به، ووجوب اتباع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

واختص بالاسمين الشريفين- العزيز الحكيم -؛ لأن العزيز الذي لا يعانده أحد، ولا يستطيع أحد أن يعلو عليه، ولا يستطيع أحد أن يكابر فيه، وأن كل أحد إذا كابر فيه خصمه القرآن، **وأن كل أحد يحاول أن يدخل عليه أي مدخل من مداخل السوء التي نراها يرجع خاسراً بائراً مهزومًا**؛ لأنه من العزيز الذي عزه لا يغلب، والذي قهره لا يهزم -سبحانه وتعالى- وذلك كلامه. وهو الحكيم الذي قد نزله على الحكمة التي يراها الله سبحانه وتعالى، والتي بها تستقيم أحوال الناس في الدنيا والآخرة.

ما الذي يحملهم على أن يؤمنوا بهذا الكتاب؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وسماها الله تعالى (آيات)، وأخبر أنها متلوة في القرآن وهذه الآيات للمؤمنين ليزدادوا إيمانا ولأولئك المكذبين ليؤمنوا، وللكفرة ليرجعوا عن كفرهم وطغيانهم؛ ليؤمنوا بإله واحد نزل هذا القرآن، وليؤمنوا برسوله الذي أتى به؛ لأنه قد أتى بذلك الذي يدل على هذه

الآيات بتلك المعجزات التي لا يدفعها أحد، فكان صادقًا فيما ادعى ﷺ من ربه، بالتالي وجب تصديقه، والإيمان به، والسير وراءه؛ لأن ذلك سبب الفلاح.

ثم قال المولى: ﴿ **إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فتلك الآيات التي لا يستطيع أن يأتي بها أحد، هي سبب الإيمان، فالمتفكر فيها لا بد أن يؤمن، والمؤمن بها لا بد أن يوقن، لذلك قال: ﴿ **وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ فلما قال: ﴿ **وَفِي خَلْقِكُمْ** ﴾ قال: ﴿ **ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾، فبعدما آمنوا ، واستبصروا، ونظروا في الآيات، وصدّقوا الرسول ﷺ، واتبعوه، زاد إيمانهم إلى حد اليقين.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿ **وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الجاثية: ٥] وقد ذكرت الآية أن الآيات التي ينبغي أن تكون سبب إيمانهم هي الآيات المشاهدة؛ لأن الآيات نوعان، **آيات متلوة وآيات مشاهدة**. آيات متلوة في كتاب الله لم يستطع الكافرون، ولا المشركون، ولا أساطين بلاغتهم، أن يأتوا بشيء مثلها، ولو بسورة من مثله، كما ذكر الله تعالى، وآيات مشاهدة تلك التي بثها الله تعالى في كونه؛ من خلق الإنسان، والدواب، وما بث فيهما من دابة، كما قال: ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ** ﴾ [الشورى: ٢٩]، إلى

آخر تلك الآيات التي لو نظر الناظر ليعقل فيها ويستبصر نظرًا صحيحًا مجردًا لا بد وأن يهتدي إلى أن خالقها هو الله تعالى، وهو واحد جل وعلا، وبالتالي كان رسوله ﷺ صادقًا يجب اتباعه.

وقوله تعالى: ﴿ **وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ** ﴾ **يبين أنهم ما وصلوا إلى ذلك إلا بالعقل الذي عطله هؤلاء المجرمون**، بأنهم تفكروا في تلك الآيات، ونظروا فيها، واستبصروا بها، فكانت سببًا لأن يكون هذا التفكر والنظر الصحيح في تلك الآيات التي خلق الله، وفي تلك الآيات المتلوة التي يسمعونها من رسول الله ﷺ، كانت سببًا في إيمانهم، وإقبالهم بشراشر قلوبهم على الله تعالى.

وبعد أن ذكر تلك الآيات التي تبين أن المرء لا بد أن يؤمن عند سماعها، وأن يستجيب لها، وأن يستسلم لمقتضاها، وأن يكون أحد العاملين الداعين لها، قال المولى: ﴿ **تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ** ﴾ [الجاثية: ٦] إذا لم يؤمنوا بهذا الكلام من كلام الله، ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ** ﴾وهذا استفهام إنكاري، ينكر عليهم أن يكون لهم إيمان بغير حديث الله، وحديث النبي ﷺ وهم مصرون إلا أن يؤمنوا بغير حديث الله ويبعدوه، ويؤمنوا بغير كلام الله ويقصوه، فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون ؟ قد قدموا أحاديث البشر، وكلام البشر،

وقوانين البشر، وعلوم البشر، على ما قدم الله لهم من خير، وعلى ما بين الله لهم من صحة السبيل التي يجب أن يسيروا فيها، فماذا حصلوا في الدنيا والآخرة؟ فبأي حديث بعد حديث الله يؤمنون؟

بأي حديث بعد كلام الله، وكتاب الله، وآيات الله يؤمنون؟ هؤلاء المجرمون الذين يريدونها عوجًا، ويبتغونها غير شريعة الله تعالى، ويصدون - بالاستهزاء بالمؤمنين- عن شرع الله جل وعلا.

فبعد هذه الآيات التي يجب أن يؤمن بها كل أحد، وتكون هاديًا له في طريقه، ويستمسك فيها بشرع الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ؛ ليحقق صلاح الدنيا، وفوز الآخرة، إذا بأولئك الآثمين يرفعون أصواتهم ليعترضوا، كأنه قال: اعترضوا، وهذا تعريض بهم، وكأنه يقول: أساءوا ووقعوا في الخطايا والآثام التي وقعوا فيها اليوم، فكأنه يقول: انظر إلى عاقبتهم، ولا يهولنك أمرهم أبدًا، فالعاقبة للمتقين.

هؤلاء المجرمون الذين يستكبرون عن آياته ويلوكون ألسنتهم بالاستهزاء ببعض آياته، ويسخرون منه ومن رسوله ومن أهله إن هؤلاء -كما ستبين الآيات- **لا يخيفون المؤمنين، وأن مصيرهم السوء، وأنهم مهما علوا وارتفع صوتهم ونباحهم، وارتفع وزاد كيدهم وإضلالهم وتلفيقهم وكذبهم فإن ذلك كله مما يطمئن إليه المؤمنون**، فيطمئنوا إلى أن الله ناصر دينه، ومعل كلمته، فبشر

المؤمنين قبل أن يأخذ في عرض الآيات إلى هذا الحال، وبين عقابهم على إفكهم وافترائهم في الدنيا قبل الآخرة حتى يعلم المؤمنون صدق ما هم عليه، وحتى يطمئنوا إلى ربهم ويثقوا فيما عنده، وحتى يكون ذلك سببًا وجيهًا لأن تجتمع قلوبهم عليه، وأن يتبعوا ما أنزل الله، وألا يفرطوا في شيء منه، وأنه سبب علوهم، وسبب انتصارهم، وسبب رفع رايتهم.

الكذابون الأفاكون لهم عذاب مهين

بعد أن ذكر تلك المقدمة التي تبين توحيد الإله، وتوحيد النبوة، وصدق النبي ﷺ، ولزوم الاتباع، ثنى بالكلام على هؤلاء المجرمين الذين كان ينبغي أن تكون هذه الآيات التي عرضها عليهم سببًا لتوبتهم وارتداعهم، وسببًا لأن يتبعوا سنة نبيهم، وسببًا لأن يتأدبوا مع شرع الله تعالى، **وأن يعلو هذا الشرع فوق كل الرؤوس التي تدين للإسلام بالولاء، والتي لا تدين.**

بدلاً من أن يؤمنوا إذا بهم يكذبون على الله وعلى رسوله، ويختلقون الأكاذيب والبهتان على المؤمنين، ويستهزئون بآيات الله تعالى! إذا بهذا الترتيب العجيب لهذه السورة يقول: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ

جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية:٧-١٠]

فبدأ الكلام في هذا المقطع من الآيات بقوله: ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾ ويل لهم، شر سيحل عليهم إن شاء الله تعالى ، أولئك المعرضون، المكذبون، الأفاكون، أولئك الرويبضة الذين بين النبي ﷺ شأنهم في الحديث الذي ذكرنا.

ومعنى: ﴿ **أَفَّاك** ﴾ أي القوي في كذبه ، وهو الكذاب الزائد عن الكذاب الأشر، الذي يعلم أنه كذاب، ويتكلم بهذا الكذب، ويقوي هذا الكذب، من التلفيق، والاتهام، واختراع القصص، وإن كان ذلك نازلاً في المشركين، إلا أنه يعم في الفسقة المؤمنين الذين لم يحكم بعد بكفرهم، إلا أن يكونوا قد أظهروا كفرهم بواحًا.

وقد علمنا الإفك، وعلمنا أصحابه، ورأيناهم رأي العين اليوم، **ورأينا الخطايا والسيئات التي يريدون أن يفرضوها على أمة محمد** ﷺ، والتي يحاربون بها دين الله سبحانه وتعالى وشرعه، ويبتغون بها غير رضوانه، يبتغون بذلك رضاء الكفرة، وسَيرهم، ومبادئهم، وما يليق بهم، ويريدون فرض ذلك على المؤمنين، ويتركون كلام الله وآياته !

و﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي: كثير الإثم والخطايا، وما يتعلق بتلك الآثام، والمعاصي، والذنوب، والسيئات، أي ما يتعلق بالإجرام الذي يواقعونه؛ ليكون سببًا في تحللهم من دين الله، وسببًا في استهزائهم بهذا الدين، حتى يكون ذلك كله صدًا عن سبيل الله تعالى، وسببًا في إبعاد الناس عن دين الله، وتخويفهم من أمر الله وسنة رسول الله ﷺ، **ليس إلا بالكذب، وليس إلا بالإثم، من التلفيق، والاتهام، والعمل بالباطل، والسخرية والاستهزاء، وفي اتهام المؤمنين، وفي الإرجاف بهم، وفي اختلاق الأكاذيب حولهم، وفي اتهامهم بالباطل،** وهي ما تحمله كلمة الإفك. و﴿ أَفَّاكٍ ﴾؛ لأنه كثير الإفك، كل كلامه قد ملأ بتلك الخطايا، والآثام، وتلك الرذائل والسخائم التي سمعناها ونحيا فيها، فكأن الآيات قد نزلت لتعالج هذا الواقع المر الذي نحياه اليوم.

قال تعالى: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي يسمع آيات القران أو تلك الآيات التي بثها الله في كونه مما تكلم بها القرآن، ولو قلنا: كيف يسمع هذه الآيات المنتشرة ؟ نقول: يسمعها من كلام الله في كتابه، كما قال: ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهو: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ الآيات المتلوة، ويسمع التذكير بالآيات المشاهدة، ثم يصر مستمسكًا لا ينفك عن الإصرار على ما هو فيه.

وقد حُذف من الآية مفعول: يُصر، فعلى أي شيء يصر؟ يصر على ما هو فيه من الكفر، والفسق، والكذب، والبهتان، والتلفيق، والإثم، والخطايا، كلٌّ حسب موقفه من الدين، ثم يصر مع الاستكبار، فيستكبر أن يتبع ما يمليه عليه الإيمان أو السنة، ويتعالى أن يسير وراءها، ويهمز أهلها ويغمزهم، ويتطاول على سنة النبي ﷺ وسنة السلف التي هي سنة النبي ﷺ، ويستنكف عن الرجوع إلى الحق والالتزام به.

قال تعالى: ﴿ **كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا** ﴾ فكأنه لم يسمع تلك الآيات، فما في مخه وعقله من الإثم والخطايا والإفك هو هو، وفي نفس الوقت ليس هو هو فقط، **بل ويريد أن يفرضه على المؤمنين، وإلا فهم في مجال الاستهزاء والسخرية والتطاول والاتهام إلى آخر تلك القائمة السوداء التي أعدوها لمحاربة المؤمنين !**

واستمرت الآيات في وصف حالهم، وكأنهم هم من أنزل عليهم القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا** ﴾ لو قيل له: هذه آيات وكلام الله وكذا وكذا، يأخذ هذه الآيات ويلوكها بلسانه استهزاء، وهو معنى اتخذها هزوًا: أن يلوكها بفمه، كما يلوك المستهزئ كلام من أمامه استهزاء به. وإن كانوا ما زالوا على الاستهزاء المطلق، أي لم يستهزئوا بتلك الآيات التي يسمعون فقط، **وإنما الاستهزاء دأبهم في كل ما سمعوا، وما لم يسمعوا**، فإن سمعوا شيئًا جديدًا دخل أيضًا تحت الاستهزاء والسخرية، لذلك

قال: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَتِنَا ﴾ علم: أي سمع، من آياتنا شيئًا ﴿ ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فلو سمع شيئًا سخر به، وسخر منه، وسخر من آيات الله، سواء باللمز الخفي، أو بالمجاهرة التي لا يجاهر بها إلا الكفرة.

فكان عاقبة ما هم فيه من جنس ما عملوا، فإن كانوا على الاستهزاء والسخرية بتلك الآيات، والاستهزاء والسخرية بأهلها ومناظرهم التي يتبعون فيها السنة، وآرائهم التي يسيرون فيها وراء النبي ﷺ إلى آخر هذا الحال، يقول: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، أي **يبلغون في الإهانة شيئًا عظيمًا، كما استهانوا واستهزءوا، كما سخروا ولم يبالوا**، وهذا يطمئن المؤمنين إلى ما سيحدث لهؤلاء في الدنيا إذا لم يتب الله عليهم، و يعودوا إلى رشدهم وصوابهم، ويخرجوا من نفاقهم وما هم فيه إلى آيات الله تعالى وكلامه، فإنهم سيكونون على هذا الحال من العذاب المهين.

ما هو العذاب المهين؟ قال: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ هؤلاء الجهلة الغفلة كأن جهنم وراءهم وهم لا يحسون بها من الغفلة، وكأنها وراءهم لقرب ما سينزل بهم، وكأنه يقول: **إن العذاب المهين ملاحق لهم قريب منهم**، وهم يغفلون عنه وهو أقرب شيء إليهم في الآخرة.

ثم ذكر الله تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ ﴾ فقط؟ لا، ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا ﴾ **ما كانوا يسعون إليه في الدنيا ليكتسبوه من مال من جاه، أو من**

سلطان لا يغني عنهم شيئًا، وأنصارهم الذين جمعوهم وحاولوا أن يشككوا بهم، وأن يعينوهم على تلفيقهم وكذبهم، وعلى إثمهم وخطاياهم، قال المولى: ﴿ **وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ** ﴾ أي ولا يغني عنهم ما اتخذوا من دون الله أولياء، ولهم في الدنيا عذاب عظيم، لهم العذاب المهين في الآخرة، ولهم العذاب العظيم في الدنيا مما سينزل بهم، ويحل بساحتهم، ويكونون به عبرة ونكالاً.

أخبرت إذن الآيات المؤمنين أنهم **لا يهمهم أمر هؤلاء طالما يسيرون على الأمر الحق من أمر الله تعالى، وطالما قد التزموا شرع الله تعالى الصحيح فيما أنزل**، وأن هراء هؤلاء، وكلامهم، واستهزاءهم، وعبثهم، وصدهم عن سبيل الله تعالى، لن يكون إلا وبالاً عليهم، ولن يكون إلا صغارًا لهم وذلة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثبتت قلوب المؤمنين، واستقرت، وعلمت موعود الله في الدنيا والآخرة للمؤمنين، واستيقنت أن ذلك من عند الله تعالى، وعلمت ما سيحدث لهؤلاء في الدنيا والآخرة، وعلموا أنهم على الحق، وأن الله لن يتركهم، ولن يخذل دينه سبحانه وتعالى.

إقامة الدولة بالهدى والتوحيد وشكر النعم

يقول المولى جل وعلا بعد ذلك: ﴿ **هَٰذَا هُدًى** ﴾ هذا إشارة إلى تنزيل الكتاب، ووصفه بأعظم صفاته: أنه هدى، فهؤلاء المفرطون فيه قد فرطوا فيما

يكون سبب هدايتهم، وسبب علوهم ورفعتهم، ظنوا أنهم باتباعهم ما هم فيه يمكن أن يكونوا شيئًا، وبأن يكونوا زيلاً للشرق والغرب والكفرة والفسقة، أن ينشئوا دولة، أو أن يقيموا مجتمعًا، كلا! ﴿ **هَٰذَا هُدًى** ﴾ إنما ما يقيمون به دولتهم، ويرفعون به رايتهم، ذلك الكتاب لأنه هو الهدى، ومن اهتدى به فقد هدي إلى صراط مستقيم، ومن تكلم به صدق، ومن حكم به عدل إلى آخر صفاته التي أشار إليها القرآن، فهو النور والرحمة والموعظة والشفاء والبينة وغير ذلك مما جاء في وصف الله تعالى لكلامه.

وقد جاء التعبير باسم الإشارة: (هذا) ليتشخص للمؤمنين، فكأنه حاضر في الواقع أمامهم، مشخص، متميز، فهذا الهدى لأولئك الذين فرطوا فيه، فماذا كان جزاؤهم مرة أخرى؟ ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ** ﴾ والذين كفروا بهذا الهدى، لهم العذاب، لأنهم لم يسيروا وراء هذا الهدى، ولم يلتزموا نهجه، ولم يتبعوا شريعته كما ذكر بعد ذلك: ﴿ **ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا** ﴾ فهي السورة الوحيدة التي ذكر فيها لفظ شريعة.

والرجز هو أشد العذاب، وأضاف الأليم إليه إما بيانًا وإما تبعيضًا، فكأنه يقول: سوف يأخذون جزءًا من هذا العذاب العظيم الذي لا يقدر قدره إلا من ينزله سبحانه وتعالى على من يستحق منهم، أو: ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**

﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ هو الرجز الأليم، فكفرهم بهذا الهدى هو السبب الذي وصل بهم إلى ذلك العذاب التي ذكر الله تعالى.

علم أهل الإيمان كيف بينت الآيات وحدانية لله تعالى، التي ينبغي أن تحمل كل أحد على توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وأن يفرد المرء قلبه لله تعالى بتلك المبادئ والعلوم التي شرعها الله تعالى للمؤمنين، والأحكام التي فصّلها لهم ليتبعوها، لا أن يتبعوا هؤلاء المشركين، وهؤلاء المنافقين، وهؤلاء الذين يتبعون الكافرين في التحلل من الشرع الشريف، والتزام ما لم ينزل به الله تعالى سلطانًا من تلك الآراء والمبادئ الفاسدة اليوم التي ينشرونها، من علمانيين، وملحدين، ودهريين، لا يؤمنون بالبعث والحساب، وعصاة المؤمنين وفسقتهم الذين يسيرون بجهل أو بغيره على منوال هؤلاء.

فحقيقة توحيد الله تعالى أن يسلم الناس أمرهم لله تعالى بمقتضى لا إله إلا الله، وأن له الحكم والأمر، وأن له سبحانه وتعالى ملكوت كل شيء، وبالتالي أن يصرفوا وجوههم، وحياتهم، ومماتهم، ونسكهم، واعتقاداتهم، وسلوكهم، وعباداتهم، وكل شيء في دنياهم، لله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢﴾ [الجاثية: ١٢] فبعد أن بين لهم آيات الوحدانية لله تعالى؛ ليؤمنوا، ثم إذا بهم ينكثون، ويختارون طريق

الشيطان والغواية، وطريق الهوى، يختارون طريق الكفرة في حكمهم، وزيهم، وعباداتهم، وشرعهم، ويريدون أن يطبقوا ذلك كله على المؤمنين! وإلا فإن لهم الاستهزاء، والسخرية، والتنكيل بهم، وإلا فإن لهم منهم كذلك التشهير، ورفع تلك الراية من التكذيب، من إعلاء كلمة الباطل على كلمتهم، بغيًا، وعدوانًا، وظلمًا، وإثمًا، فعوقب المنكرون في الدنيا والآخرة، إذا بالله سبحانه يقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ فهو التذكير بنعم الله تعالى عليهم التي يجب أن تقابل بالشكر، فلو هاج البحر، وجاء تسونامي ، لا تستطيع الدنيا كلها إيقافه أو تسخيره، فلما سخر لهم ذلك دل على آية أخرى، ونعمة من نعمه جل وعلا عليهم، وهي لمصلحتهم هم، فكانت الآيات الأولى دليل الوحدانية، والآيات التالية دليل النعم التي يجب أن تقابل بالشكر.

ولما قال تعالى بعدها: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] بين أن ذلك التسخير لآيات الله لهم، لرخائهم، ولتعرفهم بهذه النعم على خالقهم، وفي نفس الوقت ليشكروا نعم الله تعالى عليهم، فهل قابلوا ذلك بما يستحق؟ قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ

صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجاثية: ١٤-١٥].

شريعة الإسلام هي الأكمل ومعارضوها يتبعون الأهواء

بعد ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [الجاثية: ١٦ – ١٧]، ونشير سريعًا لعلاقة ذلك بما سبقه من الآيات.

فآيات القرآن كلها نزلت لرسول الله ﷺ تسلية له، بمعنى: أن تصبره على الدعوة وأن ترفع من حزنه وإحباطه لعدم إيمان المشركين، واختلافهم عليه، فجاء القصص عن بني إسرائيل واختلافهم على أنبيائهم في هذا السياق ليبين للنبي ﷺ أن الله تعالى آتاهم كل هذه النعم، وهذه النعم لقومك لم يؤت قومك مثلها، ولم نعطهم العلم والحجج والبينات التي هي في الكتاب عندهم ومن علمائهم، ومع ذلك اختلفوا، فتفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ أي: وما اختلفوا إلا وهم عالمون من الله تعالى بهذه النعم والوحدانية، وإتيان البينات والحجج التي أعطاها الله تعالى علماءهم وأحبارهم، وقاموا بها بين العالمين.

فلا يحزنك إذًا أن يختلف المشركون عليك، وألا يؤمنوا بعدما بيّنا لهم آيات الوحدانية، والآيات تسخير النعم لهم، فلم يشكروا؛ لأن هؤلاء لم يأتهم العلم، فإن اختلفوا فإنما يهون عليك كما اختلف بنو إسرائيل بعد أن جاءهم العلم، فهم أقل من بني إسرائيل في الاختلاف عليك، فلا يحزنك ذلك.

ففي مقابل أن أنعم على المؤمنين بالهدى أنعم على بني إسرائيل بالكتاب، والحكم، والنبوة، وفي مقابل الطيبات التي ذكر سخر الله تعالى، من تسخير البحر وغيره للمؤمنين، يبين لهم أنه سيحاسبهم سبحانه وتعالى بين ذلك في بني إسرائيل بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الجاثية: ١٧]، ثم فضلهم سبحانه وتعالى على العالمين، أي: على العالمين في وقتهم؛ لأن أفضل الأمم هي أمة النبي ﷺ.

ثم توالت آيات المولى جل وعلا بعد ذلك ، فذكر أولاً بني إسرائيل، ثم ذكر شريعة النبي ﷺ؛ ليتميز للناس أن شريعة النبي عليه الصلاة والسلام أفضل من شريعة موسى عليه السلام وأكمل وأتم، وأيسر منها، فكان الجزاء وكان الوفاق أن يتبعوا تلك الشريعة، وإن أصحاب موسى - كما يعير القرآن المشركين - إنما اختلفوا بعدما جاءهم العلم، وهؤلاء من قبل أن يأتيهم العلم قد أصابوا هذا الاختلاف، ووقفوا دون اتباع القرآن! مع أنه هو الأولى، وهو الأفضل، وهو الأيسر، وهو كذا وكذا لهؤلاء المجرمين اليوم.

أما آيات الشريعة، والتي هي موضع الكلام، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨- ٢١].

فبعد أن أعطاهم دلائل الوحدانية، ودلائل النعم؛ ليشكروا عليها، ورزقهم من الطيبات، اختلف هؤلاء المجرمون، المشركون ومن تبعهم، والمنافقون وأشكالهم، اختلفوا على النبي ﷺ ، وأرادوها عوجًا، كما هي عوج عند أولئك الكفرة الذين يقلدونهم، إذا بالله تعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ .

فكأن الآية تقول: لا شريعة إلا شريعة النبي ﷺ علوًا، وقدرًا، وفضلاً، ويسرًا، وبالتالي يجب أن تكون الأشد اتباعًا لها، وهذه الشريعة كما قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي من شان الله تعالى ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ أي فليتبعها هو ليكون قدوة للمؤمنين، وليتبعها أولئك المؤمنون كذلك.

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وسمى هؤلاء المجرمين: الذين لا يعلمون، فوصفهم بالجهل، بعد أن وصفهم بضعف العقل، وعدم الإيقان فيما سبق.

فإنهم مهما "ولولوا" ليظهروا علمًا أو فهمًا فيما هم فيه من أيام الله، **فإنما هم جهلة لعدم اتباعهم تلك الشريعة**، وأنهم لن يخرجوا عن هذا الجهل إلا بالعلم الحق، وهو العلم بالله تعالى، وبرسوله، والعلم بشريعته، واتباعها، لذلك لا يخاف المؤمنون من أولئك لأنهم جهلة، كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سماهم جهلة وسمى ما ينشرونه بين الناس بالهوى، ليؤكد صحة مقولتهم التي يقولونها هذه الأيام، إنما هو الهوى، لا ينطقون إلا عن الهوى، والنبي ما ينطق أبدًا عن الهوى ﷺ وهؤلاء **لا ينطقون عن هوى واحد، وإنما عن أهواء متعددة، كل له هواه، وكل له مشربه الذي ينتج منه هذا الهوى، إن كان نفاقًا، وان كان طلبًا للسلطان، وإن كان مالاً، وإن كان خداعًا ومكرًا، وإن كان عمالة للشرق والغرب**، وإن كان كذا وكذا، وكلها أهواء، لذلك قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقد قالت الآية للنبي ﷺ : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾، فهو أولى الناس به، ولكن الخطاب لأمته، فأنتم أيها المؤمنون مطالبون بذلك، فلا ينبغي إذن أن تميل لهم وتداهنهم وتظهر أنهم يعلمون، وأنهم يفهمون،

وأن لهم من الحق مقال، وأن كلامهم فيه شيء اتباعه لا يضر، وكذا وكذا مما نسمع من أولئك المسلمين الذين يريدون أن يرفعوا راية الإسلام بتلك المقولات المفضوحة ، أو بتلك المقولات التي لا قيمة لها، لماذا؟ ﴿ **إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا** ﴾ أن تقول مثل قولهم، أو أن تتبع مثل نهجهم، أو أن ترفع راية من راياتهم، تلك التي يرفعون: العلمانية، والديمقراطية، والليبرالية، والاشتراكية، تلك الألفاظ التي كلها منقولة عن الغرب، وتطبيقها عندهم قد يليق ببيئتهم لأنهم أصحابها ولكن لا يليق تطبيقها كما هي عند المؤمنين لاختلاف البيئة لأن المؤمنين قد قيل لهم: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ** ﴾ فهؤلاء كلهم ظالمون، بعضهم أولياء بعض، وفي نفس الوقت لا ولاية لله لهم، ولا ولاية منهم لله تعالى، وكل من رُفعت ولاية الله تعالى عنه فهو في محض الهزيمة والخسران في الدنيا والآخرة، فلا يهمك أمره، ولا يخيفك شأنه؛ لماذا؟ ﴿ **وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ **هو وليهم، ناصرهم، ومؤيدهم، ومعينهم، ورافعهم، وحاميهم**، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴾ [الحج: ٣٨].

نرجع إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ لنفصل فيه شيئا ما. فالشريعة هي الدين والملة، والتنوين هنا للتعظيم: ﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ أي: شريعة عظيمة، و﴿ ثُمَّ ﴾ كما يقول أهل البلاغة: ثم للعطف الرتبي، بمعنى أن الكلام بعد (ثم) أفضل من الكلام الذي يقارن به قبل ثم، أي: آتيناك شريعة عظيمة أعظم من الشريعة التي آتينا بني إسرائيل، وجعلناك عليها، أي ثبتناك عليها تثبيتًا؛ لأن (على) للاستعلاء كما يقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥]، أي متمكنون من هذا الهدى، فالمعنى: جعلناك على شريعة عظيمة، متمكنًا منها، وهي تدل على ثبات النبي ﷺ على معنى العلو، فهو متمكن من هذه الشريعة ، يدعو إليها، ويعيش لها، ويموت لها، ويجاهد من أجلها ولرفع رايتها.

وقوله ﴿ جَعَلْنَـٰكَ ﴾ يدل أيضًا على أن المجعول أفضل مما سبق، وأنك متمكن منها، لا تتزعزع عنها، ثابت عليها، لا تتحرك -هذا تفسير العلماء- تدعو إليها وتعمل لها بكل ما تملك، ليلاً ونهارًا؛ لأن هذه الشريعة هي أعظم الشرائع بعد ذلك .

وهذا الذي ينبغي أن نفهمه أولاً، وأن نُفهمه لأولئك، **أن تلك الشريعة لا شريعة بعدها، ولا شريعة أعظم منها، ولا شريعة أكمل وأجمل وأرحم منها**، كما ذكر المولى سبحانه وتعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:

١٠٧]، ثم على أهل الإيمان أن يقوموا بالثبات عليها، لا يتزحزحون، وأن يتمكنوا منها، لا يتشككون، وأن يدعوا إليها مثابرة وصبرًا حتى تعلو رايتها، وحتى ترتفع على العالمين بقوة الله تعالى وفضله.

وهذه الشريعة التي نوهنا بفضلها جعلناك متمكنًا منها أعظم التمكن، وملازمًا متبعًا لها أعظم الاتباع، وهذا الاتباع قد حمله ﷺ ، على بذل أقصى البذل ليبلغ دعوة الله تعالى، وهو ما يجب أن يحمل المؤمنون عليه بأقصى ما يبذلون من وسع وطاقة في سبيل هذه الشريعة العظمى التي هي سبب نجاتهم في الدنيا والآخرة.

فكانت هذه الثلاثة من إعجاز القرآن؛ أنها أعظم شريعة، وأنه متمكن منها، وأنه قد بذل لها، وللدعوة إلى سبيلها نفسه، وماله، وأهله، وولده، ولم يقصر في ذلك من شيء، فتحقق في التعبير القرآني الموجز المعجز: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ هذه الثلاثة التي ميزت هذه الشريعة العظيمة. وهذه الشريعة هي التي **جاء المجرمون اليوم ليحاولوا إقصاءها، وإبعادها، وعدم تحكيمها؛ ليكونوا خليقين جديرين بأن يعظمهم الكفرة، وأن يقولوا عنهم: إنهم أصحاب الرأي، والعلم والتفكير والتنوير** وغير ذلك مما يدعون.

اتبع شريعة الله ولا تتبع أهواءهم ولا تخشاهم

لما قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ **فَٱتَّبِعۡهَا** ﴾ فهل هو غير متبع لها؟ هو ﷺ متبع لهذه الشريعة، فكأنه يقول للنبي ﷺ دُم على ذلك، وهي بعد ذلك موجهة للأمة كلها، فقد ذكرنا من قبل، أن الخطاب القرآني إذا جاء في شخص النبي ﷺ، إنما يقصد به الدوام؛ لأنه أول المؤمنين، وعظيم المتقين، وإمام المهديين إلى رب العالمين ﷺ؛ لذلك قال: ﴿ **فَٱتَّبِعۡهَا** ﴾ هو متبعها، فيكون معنى (فاتبعها) أي :فدُم على اتباعها، فهو على الازدياد من اتباع هذه الشريعة، والترقي فيها، ومزيد التثبت الذي هو عليه ﷺ، فهو زيادة في درجاته، أما خطاب الأمة فيلزم منه أن يتبعوا هذه الشريعة، فإن كان الأمر للنبي في ذاته فللدوام، وإن كان الخطاب للأمة في شخص النبي ﷺ فمعنى ذلك أن يتبعوها، وألا يتزحزحوا عنها، وأن يعلموا أنها الحق، والرحمة، الشريعة المهداة الخالدة من رب العالمين.

وانظر إلى بقية الكلام: ﴿ **وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ ، وسَمَ هؤلاء بأنهم لا يعلمون، الذين يريدون أن يغيروا تلك الشريعة أو أن يستبدلوا بالشريعة تلك القوانين التي يريدون، مخالفة منهم لله تعالى، ، ومشاقة له، ومشاقة لرسوله ﷺ، مع أنه سبحانه قال بعد ذلك –كما سنبين-: ﴿ **أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ** ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فأثبت لهؤلاء المجرمين علمًا من آيات الله تعالى اطلعوا عليه، يدلهم على كون ذلك هو

الحق، وأنه الذي يجب ألا يفرطوا فيه أبدًا، حتى يقيم عليهم الحجة وليبين أن ذلك العلم لم ينفعهم فصاروا كالجهلة الذين لا يعلمون لاتباعهم أهواءهم التي أشرنا إليها، وفي هذه الآية قال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والهوى الميل والمحبة مع كل باطل تأمله النفس وتهواه، وتُشبع فيه شهواتها ونزواتها.

وهو لا يتبع أهواءهم ﷺ، بل هو يتبع ما أنزل عليه من ربه جل وعلا، إذًا فالمراد: **لا تتبعوا أيها المؤمنون أولئك الذين لا يعلمون، لا تتبعوهم أبدًا، ولا تسمعوا لهم، واعلموا أنهم على الباطل، وأنهم مهما دقوا وطبلوا وصرخوا وعلا صوتهم، فإنما كل ذلك بالباطل الذي يريدون أن يظهروه، وذلك بالإفك والبهتان الذي يودون أن يكون له قيمة بين المؤمنين، وكل ذلك بالخطايا التي يرتكبونها حتى ينفروا الناس عن دين الله تعالى، وعن شريعة الله جل وعلا**. ولما وسمهم بكونهم جهلة، فحينئذ لا بد أن يتحقق المرء من أنهم جهلة كما قال الله تعالى، **ولا يهمك أنهم يكتبون، ويؤلفون، ويتكلمون، ويذيعون، وينشرون**، فكل ذلك طالما لم يلتزموا طريق الله، فهم جهلة، أقل جهل أنهم لم يؤمنوا بحديث الله، ولم يتفكروا في آيات الله، ولم يتعظوا بما ورد عن الله تعالى في كونه وخلقه سبحانه وتعالى الذي يحملهم على وحدانيته، والذي يحملهم على شكر نعمه

فيؤمنوا بها - كما ذكر المولى-، وإنما هم أولئك المشركون الذين يخاطبهم الله جل وعلا في كلامه في أهل مكة، على هذا الحال.

وقوله تعالى: ﴿ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ والأمر هو الشأن، أي: شأن من شئون الله تعالى العظيمة، والمعنى: ثم جعلناك على ملة ودين قويم، ممتاز، لا يمتاز عليه شيء، لا شريعة أخرى، ولا شريعة بعدُ تأتي، وكذلك في نفس الوقت هذه الشريعة من شأن الله تعالى وأمره ولما كانت من أمره، ومن شأنه، فإنها من أمر عظيم، وشأن عظيم من شئون الله تعالى، يهدي بها بشرًا، ويرفع بها عنهم الأغلال والآصار التي على قلوبهم، ويضيء لهم قلوبهم، ووجوههم، وطريقهم إلى الله، ويعلمهم طريق النجاة التي أرسل بها رسله، ونزل بها كتبه؛ ليكونوا على خير فلاح في الدنيا، وعلى أحسن نجاة في الآخرة.

لذلك قال تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا فيه تعريض بالمؤمنين، ألا يتبعوا أهواء أولئك، وألا يتبعوا في شريعتهم أي هوى، بل هم مأمورون باتباع الشرع، بعيدًا عن الهوى، وبعيدًا عن الميل إلى غير الله، وبعيدًا عن المحبة لغير الله، فإنه ينقص إيمانه بقدر ما يزيد هواه، وبقدر ما يقترب.

وكذلك ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ﴾ لأنهم اتخذوا إلهًا غير الله تعالى يميلون إليه بالمحبة، ويقبلون عليه بالعقيدة، وكذلك يقومون له بالنصرة والدفاع، وفي

مقابله يقاتلون أهل الإيمان في مواجهة ذلك الذي اتبعوه، بمواجهة ذلك الذي اتبعوه من الميل والهوى، فهذا توجيه للمؤمنين أن يتجردوا في هذه القضايا، وأن يتبعوا فيها ما جاء عن الله وعن رسوله، وأن يبتعدوا فيها عن الهوى وميل النفس.

ضعها أمام عينك: إن الظالمين لن يغنوا عنك من الله شيئا

لما قال جل وعلا: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قوى قلوب المؤمنين، **وحذرهم من اتباع الذين لا يعلمون، ومن مجاراتهم ومماشاتهم في آرائهم، وفي اعتقاداتهم، وفيما يتخيلون مما هو باطل أنه الحق**؛ لأن المؤمنين لا ينبغي أن يكونوا كذلك أبدًا، فقال لهم: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾.

هؤلاء المجرمون الذين تحاولون التقرب إليهم، وأن تقولوا: نحن نقول مثلما تقولون، ولا تفرق هذه الأمور عندنا، ونحن نريدها مدنية، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ﴾ لأن طالما قد خالف الشرع الشريف، ولم يتبعه، فإنما هو متبع للهوى، وحذر الله تعالى المؤمنين أن يتبعوا الهوى، وأن يتبعوا أصحاب الهوى، أن يسير هو بهواه، أو أن يتابع أولئك على هواهم، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ **لن يغنوا عنك من الله قليلاً ولا كثيرًا إذا وقعت في قبضة الله تعالى**، وعلمت حينئذ أنك قد قدمت كلامهم على

كلامه، وشرعتهم الباطلة على شرعته الحق سبحانه وتعالى ، وآثرت أن تصل إلى الدنيا التي تظن أنها تصل بك إلى الدين والإسلام، آثرت أن تصل بها من طريقهم، لا من طريق الله، ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ **فضعها أمام عينيك.**

لذلك عجيب من عجائب الدنيا أن ترى اجتماع المؤمنين مع أولئك اليوم، إلا أن يكون اجتماعًا لله تعالى يرجى منه خيرهم، ويرجى منه أن يكونوا أكثر فهمًا للدين، ويرجى منهم أن يصل إليهم صوت الإسلام الحق الوسط الذي يتكلمون عليه، إلى آخر ما يكون سبب الهداية التي هي شعلة المؤمنين، والتي هي رايتهم، أنهم ما أتوا إلا لهداية الناس كما ذكر المولى سبحانه وتعالى وكما أمر النبي ﷺ: (**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**) [1].

وضع أمام عينك أيضًا أن أحدًا من أولئك لا يضرك شيئًا، فلا يهمك شيئًا، وأنهم مهما كانوا لن يمثلوا شيئًا، لماذا؟ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ ﴾ فلا **تتخيل أنك إن أخذت بكلام بعضهم وتركت بعضهم أن**

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أب طالب يوم خيبر : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا ، خير لك من أن يكون لك حمر النعم).

الظالمين سيكونون متفرقين، لا، هم قد اتفقوا على أن يكونوا ضد أمر الله تعالى، وضد رسوله ﷺ وذلك في أيام النبي، **وهو مستمر إلى يومنا هذا**. فإذا كان التفسير السابق للآية كان متعلقًا بالمشركين، والكفار، والمنافقين وغيرهم ممن بيّنا شمول الآية لهم، فاليوم قد ظهر أمثالهم في ثوب جديد تشملهم الآية أيضًا.

﴿ **وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ لأنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، أولئك المؤمنون اليوم الذين ظنوا أن أولئك قد يغنون عنهم شيئًا، ويتقربون إليهم، ويمدحونهم، ويتعارفون عليهم التعارف الذي يكون سببًا لبقائهم على ما هم فيه من بعد عن الله، واتباع للهوى، ونبذ للشرع، ورفع لراية الصد عن سبيل الله، هؤلاء: ﴿ **لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا** ﴾ ، فيكون قوله: ﴿ **لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا** ﴾ تعليلاً بعدم اتباع هؤلاء، وكذلك يكون تعليلاً بسبب التزام شرع الله جل وعلا، أي: نعلل حينئذ أننا لا نتبع أولئك، وأنهم لن يغنوا عن المؤمنين شيئًا إذا وقعوا في شيء أو ضيق، وهل أغنى أحد منهم عن المؤمنين شيئًا عندما وقع المؤمنون في المضايق، وفي المهالك؟ أم قد رفعوا رايتهم على المؤمنين، وحذروا الناس منهم، وشوهوا صورتهم، وصار دأبهم وديدنهم تلك المحاربة لدين الله !

فقوله: ﴿ **إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا** ﴾ تعليل لعدم اتباع أهوائهم، وتعليل كذلك لاتباع ذلك الشرع الذي جاء، وهذه كما ذكرنا إنما

تتوجه للمؤمنين ألا يتبعوا أولئك؛ لأنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئًا، وهذا التعليل الأول، أي: لن يقف حائلاً دون ما ينزل عليهم من عقاب الله لو هم اتبعوا أولئك المجرمين، وساروا في ركابهم، ومشوا في سبيل أولئك الذين يتبعون تلك الآراء الغربية والشرقية التي ابتلينا بها، ويحاول المؤمنون أن يقلدوا فيها الغرب اليوم لترتفع أسهمهم، ولتنشط دعوتهم، وليصلوا إلى الحكم، وإلى هذه الأمور التي ما أنزل الله بها من سلطان !

ولذلك قال: ﴿ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ **إذا نزل عقابه في مخالفة أمره، وكذلك لن يغنوا عنك من الله إذا لم يصل بك الحال إلى ما ترجو**؛ لأنه لن يصلوا طالما لم يتبعوا تلك الشريعة، ولم يتمكنوا من الدعوة لها الدعوة المطلوبة.

والتعليل الثاني في: ﴿ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ وإنك، يا محمد -صلى الله عليه وسلم- **لست من الظالمين حتى تتبع أولئك، الذين يتبعون الذين ينادون بالعوج في دين الله تعالى، هؤلاء الجهلة المكذبون من المشركين ومن شابههم هذه الأيام، سواء نفاقًا أو جهلاً**، أو هو مسلم جاهل ويمشي في ركابهم وينشر إثمهم وإفكهم على المؤمنين واتهاماتهم الباطلة، ويشوهون صورة المؤمنين، ويختلقون عليهم الأكاذيب التي ذكرنا في بداية السورة عندما قال لهم : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ [الجاثية: ٧ – ٩]. كما نسمع الإفك هذه الأيام وأنت لست من الظالمين، فلا تتبع أهواءهم ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾.

إن هؤلاء الظالمين كلهم أولياء بعض، **فهم يوالون بعضهم بعضًا على محاربة الدين والإسلام، وعلى نبذ الإسلام، وتركه، وإقصائه، وإبعاده**، وعلى نشر الشائعات، والأكاذيب عنه، وعن أهله.

﴿ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ **وأنت لست من الظالمين حتى تواليهم على ما هم فيه، أنت من المؤمنين المتقين**، أنت لست من الظالمين لتتولى الظالمين، بل أنت من المتقين يتولاك الله، لتتولى الله تعالى، ورسوله، والذين آمنوا، تتولى الله في كتابه، ورسوله في سنته، والذين آمنوا في محبتهم، ونصرتهم، واجتماعهم، وألفتهم، ومودتهم، وإرادتهم أمر الله ورفع رايته.

إن كنت من الظالمين فلست من أوليائي، إلا أن يكون لك عذر أو سبب يليق بأن تقابل الله تعالى به ! ليس لك عذر أو سبب في أن تصل إلى الدنيا ومراكزها، ولكن أن تصل به إلى هداية الناس، ورفع رايتهم، والله يتولى أولئك سبحانه وتعالى، كما ذكر في قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ

ذَكَرَهُۥ ۞ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٤ – ٥٦].

﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أنت لست من الظالمين، إنما أنت من أوليائه، وهذا تحذير شديد للمؤمنين ألا يكونوا من أوليائه، بل أن يتقوا الله تعالى تلك التقوى المطلوبة.

أيها المؤمنون لن يغن عنكم هؤلاء من الله شيئًا، **لن يغنوا عنكم أي غناء من الله تعالى إذا حل بأسه، ونزل بلاؤه وعقابه وشدته، إياك أن تتبعهم فتكون ظالمًا مثلهم**، فلا تكونوا منهم، **هؤلاء الظلمة لدينكم، ولشرعة ربكم، ولاتباعهم لأهوائهم، لن يغنوا عنك شيئًا**، حتى تتولاهم، وحتى تقبل إليهم، وحتى تحبهم، وحتى تهيئ لهم الطريق والسبيل، أو حتى يكون لهم منك أدنى مودة، إنهم من الظالمين، ومن اتبع هواهم كان منهم، وأنت لست منهم، إذ لست ظالمًا؛ أنت من المتقين، بل أنت إمام المتقين، المتقون شيء والظالمون شيء، وأنت لست من أولئك الظالمين، بل أنت إمام المتقين، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩].

أنت إذن متبع لشرع الله تعالى، خارج عن الهوى، خارج عن الميل عن الحق، ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي أن الله هو ولي النبي ﷺ لأن النبي أول المتقين ، ومن ثم لا يهولنكم أمرهم، ولا يفت في عضدكم ما يظهرونه من

محاربة دين الله تعالى، أو تلك الأحوال التي يظن منها أن لهم عددًا وقوة، أو أن لهم شوكة ومنعة، أو أن لهم شيئًا في هذه الحياة الدنيا، لماذا؟ لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، وبالتالي ولايتهم في الدنيا منتهية بانتهاء مصالحهم، وهم في الآخرة أعداء -كما ذكر الله تعالى- ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، أما المتقون وأنت إمامهم فوليهم الله تعالى، وإن أول أوليائك هو الله جل وعلا، إذ أنت أول المتقين، وإمام المجاهدين ﷺ.

الذين اجترحوا السيئات ويدّعون المدنية والديمقراطية

ثم يعود المولى سبحانه وتعالى ليبين صفة جديدة من صفات المجرمين -والمؤمنين أيضًا-، في قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، لترتفع اليوم عقيرة أولئك ، **فهذا الذي يتكلم عن المدنية، والليبرالية، والديمقراطية، وغيرها، أفضل منك أيها السني، أيها المتدين، صاحب اللحية ؟!** وهذا الذي يقال اليوم ! إنه يفعل ما لا تفعله، وإنه يفعل الدين الحق الذي يحرر الناس من العبودية للناس، والذي به يحدث كذا وكذا، وهو يقوم بما لا تستطيع ولا تتمكن أن تجهر به، وهو وهو، فإذا بالآيات الكريمة كأنها تصور حالهم في هذا الإيجاز البديع: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

﴿ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هؤلاء المجرمون الذين اكتسبوا السيئات، واجترحوا هنا للمبالغة، أي: اكتسبوا اكتسابًا شديدًا للسيئات، حسبوا: ﴿ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ ﴾؛ لذلك يقول لك هو في الآخرة أفضل منك، وأحسن منك عند الله، وأعلى درجة، ماذا فعلت أنت لتكون حرًا، وديمقراطيًا، وتعبيريًا، وهذه الألفاظ التي نسمعها !

لذلك يقول المولى ليبين شطحهم، وخيبتهم: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هذا الاكتساب الشديد، الذين خرجوا على شرعة الله تعالى ومنهجه، الذين تركوا دينهم وعبادتهم، **الذين يسعون إلى مناصب الدنيا الزائلة، مقدمين فيها تلك الشرائع الباطلة على شريعة الله تعالى هؤلاء المكذبون لشريعة الله جل وعلا أو الصادون للناس عنها**، هؤلاء الذين يقومون بذلك الافتراء والإثم، بتلك الخطايا التي بالغ القرآن في تصويرها، هؤلاء نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات!!

أتريد أن نجعل المؤمنين المتقين كهؤلاء الذين اجترحوا السيئات؟! الذين لا يُصَلُّون، ولا يدينون دين الله الحق، أولئك العلمانيون، اللا دينيون، الدنيويون، - كما سنبين- الذين إن وهبوا لك شيئًا أن يكون دينك بينك وبين ربك، أو أن يكون دينك في مسجدك لا يخرج عن ذلك، وما الحياة وترتيبها من أولها إلى آخرها، اقتصاد، وسياسة، وعلم، وفنون، وآداب، وثقافة، وغير ذلك مما قد

ذكر الله ـ تعالى ـ من شئون الدنيا، كلها لا علاقة لها بشرعه، وأنهم لن يحيوا بعد ذلك لحساب أو عقاب، كما قال تعالى عنهم: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ وإن شدوا عليك، وزادوا في طغيانهم، حرموك مسجدك أيضًا حتى لا تتمكن من قيام دين، ولا غيره، فالأولى الليبرالية الأوربية، والثانية الماركسية والاشتراكية الشيوعية التي تمنع الدين أصلاً، وقد أزال الله تعالى ملكها، والتي تجعل الدين مقصورًا بينك وبين ربك، لا تتكلم فيه، ولا تدعو إليه. أحسب هؤلاء أن يكونوا كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ !

المشركون في أيام النبي -صلوات الله وسلامه عليه- كانوا يقولون للمؤمنين: نحن أحسن منكم في الدنيا وأحسن منكم في الآخرة، لذلك قال لهم المولى: لا، هؤلاء الذين اجترحوا السيئات لا نجعلهم ﴿ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ ﴾ أي سواء المحيا والممات لهم، أو المحيا والممات للمؤمنين، فكانوا في الدنيا بعيدين عن ربهم، صادين عن سبيله، مستهزئين بعباده، لا يقيمون شرعه ولا دينه، يفضلون تلك الشرائع على شرعته جل وعلا، مبتعدين عن معرفته وذكره، وهم في الآخرة كذلك، في ذلك الدرك من البعد عن الله تعالى، وفي ذلك الدرك من عذاب الله تعالى.

هم يقولون اليوم نحن أفضل من أولئك السنية والسلفية الذين يقولون بالدين ، ولا يغرنك، إنهم كذا وكذا، ويستهزئون بهم، ويتنقصونهم! والمؤمنون حياتهم إقبال على الله تعالى، ورفع لرايته، وتحمل في سبيله، والدعوة لدينه جل وعلا، والقيام بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، ونشر ورفع رايته، إلى آخر ما هم مقبلون به على ربهم من ذكر وقرآن وصلاة ومحبة ودعوة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وجهاد في سبيل الله، فهم على شريعة من الأمر، مستمسكون بها لذلك فآخرتهم على هذا النحو الحسن كما كانت دنياهم، والأولون أخراهم على هذا النحو السيئ الذي كانت به حياتهم، سواء محيا أولئك المجرمين في الدنيا، لا نجعلهم كالمؤمنين، ومماتهم كذلك لا يكون كمهات المؤمنين في الآخرة.

﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ إن كان لهم حكم فهو سيئ، بل ساء ذلك الحكم لكونه ليس حكمًا، ولكونه افتئاتًا على الله تعالى ولكونه كذلك خروجًا عن غرض الشارع.

مبكاة المؤمنين

وهذه الآية فيها عبرة أخرى ينبغي أن نقف عندها، فقد سماها المفسرون، **مبكاة المؤمنين**، أي يسمعها المؤمنون فيبكون، فقد قام تميم الداري رضي الله عنه ليلة بها يقرؤها ويبكي، ويقول: لا أدري من أي الفريقين أنا، من الذين

اجترحوا السيئات أم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا أدري إلى أين المصير. وهي الوقفة المهمة التي ينبغي أن نقفها مع هذه الآيات في استقبال كلام الله تعالى، والعمل به.

فالمؤمنون ما كانت آيات الله تمر عليهم ولا ينتفعون بها، ولا يتعظون منها، ولا يتذكرون ويتدبرون فيها، ولا يبكون عند سماعها، ولا يخشعون ويخضعون لله تعالى عند قراءتها، بل كانت تبكيهم، وتستخرج دموع قلوبهم وأعينهم، يتساءلون فيها عما قدموا وأخروا.

الذين اجترحوا السيئات قالوا حياتنا ومماتنا أحسن من حياتكم ومماتكم أيها المؤمنون المتقون، وإذا كنا في الدنيا على هذا الحال الحسن فنحن في الآخرة على حال أحسن منه وأحسن من حالكم، فقال الله تعالى: ﴿ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ المؤمنون في حياتهم ومماتهم مخالفون لأولئك في حياتهم ومماتهم، المؤمنون في حياتهم مقبلون على ربهم، ذاكرون له، قائمون بحدوده، متقربون إليه، يأنسون به وبذكره، ومع ذلك خائفون على أنفسهم، يبكون ألا يقبل منهم، فكيف يستوون مع غيرهم، كيف يكون ذلك ؟

لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢]، إنه قد خلق السموات والأرض بالحق، **فمن كانت حياته لله كان مماته، ومن كانت حياته**

لغيره كان مماته، فهو في الدنيا على السوء، وفي الآخرة كذلك على السوء، والمؤمنون في الدنيا على خير ما يحبون - الموقنون العلاة منهم -وفي الآخرة على خير ما يتمنون، ويرجون من الله تعالى؛ لأن الله خلق السموات والأرض بالحق. تُرى أولئك الذين اجترحوا السيئات في الدنيا وماتوا، لا آخرة لهم يحاسبون فيها على ما قدموا وأخروا؟! ﴿ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ هذا مخالف للعقل، ومخالف للفطرة، ومخالف لسنن الحياة التي خلق الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ هو التعليل، بمعنى: أن الله جل وعلا خلق السموات والأرض بالحق، وبما يكون جديرًا أن يثبت وأن يَحق، فهو سبحانه يحق الحق، وهذا الحق قد اتضحت دلائله في نظام هذا الكون العجيب المتسع الذي لا يحتمل خطأ في سيره ودورانه، في سمائه وأرضه، ومائه وبحاره، وإنسه وجنه، وظاهره وباطنه، **ومن إتمام هذا الحق أن من أساء وأفسد في هذا العالم الذي قد خلق بالحق، لا بد أن يعاقب على إفساده وإساءته**، وإلا ما كانت قد خلقت السموات والأرض بالحق، وما كانت هناك آخرة ينتظر فيها من لم يأخذ حقه في الدنيا أن يأخذه في الآخرة؛ لأنه قد خلق الكون على الحق.

لذلك تصدرت الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ﴾ فجاء لفظ الجلالة الذي اتصف بجميع صفات الكمال، وتصرف بتصرفات الحكمة، ولم

يأت: وخلق ربكم، وإنما قال: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ﴾ ، فهذا الاسم المشرف تصدر هنا ليعلم الناس أن الخالق متصف بأحسن صفات الكمال وأعلاها، وأنه من صفاته التصرف بالحكمة، وأن من صفاته سبحانه وتعالى العدل والحق الذي تقوم به السموات والأرض، وبالتالي فإنه يعلل ذلك بأن كل نفس لا تأخذ دنياها وأخراها على هواها، ولا بالظلم تأخذ ذلك وذلك، وإنما: ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ والباء هنا للعوض ، أي: ولتجزى كل نفس عوض ما كسبت، إساءة فإساءة، إحسانًا فإحسانًا، وإلا ما كان ذلك إلا مخالفًا لصفات كمال الرب، وعدله، وجلاله، وتصرفاته بالحكمة سبحانه وتعالى.

وكأن الآية تسلية للنبي ﷺ ألا يحزن من أولئك المجرمين، وليعلم **أنهم مهما أساءوا في هذه الحياة الدنيا فإنهم سوف يلقون جزاءهم في الدنيا والآخرة،** ومن لم يأخذ جزاءه موفورًا في الدنيا سيأخذه موفورًا يوم يقوم الأشهاد، وجزاء الآخرة أقوى من جزاء الدنيا، إذ جزاء الدنيا في النهاية منته ومضمحل، وجزاء الآخرة هو الباقي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المؤمنون إذًا عندما سمعوا ذلك اطمأنوا إلى ما هم فيه من ناحية، ولا يحزنهم ما فيه غيرهم من أولئك المجرمين من ناحية أخرى، فهي سلوى -كما ذكر- لهؤلاء الذين تكلم الله تعالى عنهم.

علموا الحق فاختاروا الضلال، فهل ظلمهم الله ؟

الآيات التالية: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ استفهام تعجبي من الله تعالى لأولئك الذين اتخذوا إلههم هواهم، أي: جعل هواه كالإله، لا يخالفه في شيء، إن قال له يمينًا: سار يمينًا، شمالاً: سار شمالاً، غربًا: سار غربًا، شهوات: أقبل عليها، شبهات: أقبل بها، معاصي في السر والعلن أقبل بها، فاتخذ هذا الهوى إلهًا.

والهوى هو الميل عن الحق، والمحبة لما هو فيه من شهوة، والاستفهام التعجبي هنا وقرْنه بـ(رأيت) لإظهار الحد العظيم من حالته، فكأنها مرئية، تلك الحالة التي وصل إليها ذلك المنحوس الذي اتخذ إلهه هواه.

لذلك قال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ لم يقل: أفعلمت، فكأنه ظاهر أمامك، أظهره الله تعالى وبينه برؤية ظاهرة واضحة، لا تلتبس على المؤمنين، فهؤلاء لا يريدون الله، ولا رسوله ﷺ، ولا دينه، ولا شرعه، وإنما يريدون أن يحكّموا هواهم، وأن يحكّموا ميلهم وشهواتهم في دين الله تعالى، وأن يميلوا عن الحق الذي بينه لهم ربهم جل وعلا؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ ﴾

وإلهه هنا إما أنه اتخذه كالإله لا يخالفه، أو أنه اتخذه إلهًا حقًا يحبه ويعبده كما كان المشركون أيام النبي يحبون أصنامهم ويعبدونها ويتقربون إليها بالقرابين.

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ وهي النقطة المهمة في هذا السياق؛ أن الله أضله على علم، كيف يتخذ إلهه هواه، وهو على علم ؟ فهل أضلهم بلا علم منهم ثم حاسبهم وعذبهم وظلمهم؟ كلا، حاشا لله ؛ حتى لا يقال قد أضله وهو ظالم له فأدخله النار وهو ظالم له، لا، إن ربك لا يظلم أحدًا، لذلك قال: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي لهم علم، وهذا العلم هو العلم الذي وصلهم عن الله تعالى وعن النبي ﷺ . **لقد وصلهم القرآن، وعلموا منه، ووصلهم ما جاء من هدي النبي ﷺ فكابروا، وعاندوا، وركبوا رؤوسهم، واتبعوا أهواءهم** .

وقوله: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ عُبّر فيه بعلى لتمكنهم من العلم، أي أنهم متمكنون من معرفة العلم الحق الذي يصلون به إلى إدراك الحقيقة على ما هي عليه، واتباع طريق السلامة، والهدى، والرحمة، لئلا يقال لقد ضل بغير علم وَصَله، لا، هو متمكن من معرفة كلام الله ومن معرفة هدي النبي ﷺ ، وطَرَق سمعه قرآنه سبحانه وتعالى وسنة نبيه طرقت هذه الأسماع، **فسمعوها، وعلموا منها، واستمرأوا الضلال، واستمرأوا تلك الآراء الفاسدة** -من العلمانية بالذات- واستبدلوها بالهدى والرحمة، كما قال: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، فبين لهم سبحانه طريق الهدى، وطريق البصيرة، وطريق الرحمة، تُرى هل سلكوه؟ لم يسلكوه، ولم يستمعوا إلى المواعظ، لينتفعوا بها، والتذكيرات ليهتدوا بها ! فكان هذا العلم الوبال كالجهل كما بينا سابقًا بأنهم لا يعلمون.

لذلك قال: ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ ﴾ وقدم السمع هنا على عكس سورة البقرة، فقال سبحانه: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ ﴾ [البقرة: ٧]، وهذا الترتيب المنطقي لأنهم ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ [البقرة: ٦]، فهم عقدوا قلوبهم ، فختم عليها، ثم ختم على سمعهم، أما في هذه الآية: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ ﴾ لما اتخذ إلهه هواه أغلق سمعه عن أن يسمع، ثم تأكد بإغلاق القلب الذي كان سببًا في ألا يصل إليه نور الهداية، فإذا ما تأكد إغلاق السمع وإغلاق القلب عن الانتفاع بالهداية ودلالتها، والسمع عن الانتفاع بسماع المواعظ والتذكيرات جاءت الغشاوة على العين كذلك لتمنعه من السير إلى الله تعالى، وكانت تلك عاقبتهم التي لا بد منها عندما يُعرضون عن كلام الله وسنة رسوله ﷺ ويستبدلون ذلك كله بما سمعنا ورأينا من هذه الآراء التي نراها اليوم.

فخُتم على قلبه! أغلق هذا القلب أمام الأدلة، فلم يفهمها، ولم يرد فهمها، وكأن على بصره غشاوة ، فلم ير دلائل الله تعالى الموصلة للعلم اليقيني به جلا وعلا.

تركهم إذًا سبحانه وتعالى وتَرْكُ الله لهم هو الخذلان، وترك الله لهم أن بقوا حينئذ في ذلك الضلال، فلم يصبهم توفيقه. وحفَّتهم أنواع الضلالة، لأنهم زاغوا، والله يقول: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

قد أعطاك الهدى فزغت عنه، ماذا تريد؟ بين لك طريق الهداية، وأعطاك سلامة الحواس، وأرسل لك الرسول، وأنزل لك الكتاب، وبين لك الطريقين، وهداك النجدين، ثم اخترت الضلالة على الهدى، تُعذب أو لا ؟ قد بُين لك: إن تذاكر تنجح، أو لا تذاكر ولا تنجح، فاخترت أن تترك المذاكرة ثم تأتي لتقول: قد رسبت! نعم رسبتَ ؛ لأنك لم تقم بما عليك مما اتضح لك أنه لا بد سيوصلك إلى نهاية الطريق.

إذًا قوله: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ﴾ أي: ظهر لك ظهورًا جليًا من اتخذ إلهه هواه ، وظهر لك ضلالهم ، وحفتهم أسباب الضلالة، بتلك العقول المكابرة، وتلك النفوس الضعيفة عن استقبال الحق، وتلك النفوس التي تميل إلى الشهوات

واتباع الشيطان والهوى، لما كانت هذه النفوس على هذا الحال كانت جديرة بالضلال، جديرة أن يضلها وألا يعينها أو أن يوفقها.

والمؤمنون كانوا يمكن أن يكونوا كذلك، أن يعرفوا الهدى ثم لا يلتزمون هذا الهدى، لولا توفيقه بأن أعانهم على الالتزام، وهذا فضل زائد؛ لذلك فهذه الآية من أعظم الآيات للمؤمنين، لأنها أصل في ألا يترك المؤمنون بسبب الهوى دليل اتباع الحق، ودليل اتباع محبة ذلك الحق، فعندما يظهر لهم الحق لابد أن يتبعوه وألا يكون الهوى والميل، والمحبة، والولد، والنفس، والشهرة، والمال، باعثًا لهم على ترك هذا الاتباع، وذلك يدفع المؤمنين للخوف على أنفسهم عندما يرون الحق فلا يتبعوه.

ويدفعهم ذلك أيضًا للحذر الشديد من المصائب من الشهوات، والتي لا بد أن يتعلم المرء أنها وراء أسباب هذا الضلال الذي نعوذ بالله تعالى أن نقع فيه، ونستنجد بالله تعالى أن يحفظنا منه، وأن يقينا إياه سبحانه وتعالى.

وذلك لأن اتباع هذه الشهوات يمنع من اتباع الحق، لأن اتباع الحق من محبة الله تعالى؛ لأنه أحب الحق جل وعلا، فعندما يحب الحق كان الحق مقدمًا على نفسه وشهواته، وعلى آرائه وأفكاره، وكان الحق قائده إلى أن يتبع الهدى، ويصل إلى تلك الرحمة: ﴿ **وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ ليتميز للمؤمنين ما بين لهم من طريقه وهُداه، وما أودع كتابه وسنة نبيه ﷺ من الهدى

والرحمة التي يجب اتباعها، وتلك الولاية التي ينبغي على المؤمنين أن يلتزموها لكتاب الله ولرسوله وللمؤمنين.

وكذلك لا يغيب عنكم أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد هدايتهم وفقهم لذلك، وإذا لم يرد بين لهم الطريق وتركهم، ساروا أو لم يسيروا، لا تحزنوا عليهم، وإن يكون حزن المؤمنين على أنفسهم، وعلى تقصيرهم، وعلى تفريطهم في دعوة ربهم، واستمساكهم بدينهم، وعلى ما فرطوا في ميلهم لهؤلاء الضالين، أو موافقتهم في بعض أقوالهم كما قالت الآيات: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٦].

ثم جاء الاستفهام الإنكاري: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ هذا الذي ضل على علم من يهديه؟ وكأنها سلوى للنبي ﷺ لحزنه على إعراضهم، وعدم التزامهم بشرع ربهم، وعدم اتباعهم لدعوته المكرمة فكان حزينًا، فإذا بهذه الآية تقول له: ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ ؟ لن يهديه أحد. فلا تطمع في هداية أولئك، وأرح نفسك منهم، ولا تسمع لهم، وقس أحوالهم وأمورهم على ما ذكرنا لك من صفاتهم السيئة، **وأنهم لن يضروك شيئًا، ولن يضروا الإسلام شيئًا، ولن يضروا الله شيئًا، وإن ضروا فإنما أنفسهم يضرون**، كما ذكر المولى في الآية السابقة، فلا يهمك هذا الحال.

وكذلك قال للمؤمنين في نفس الاستفهام: ﴿ **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ أيها المؤمنون كيف غاب عنكم ذلك وطمعتم في رجوعهم إلى الحق، واتباعهم لأوامر الله تعالى، والقيام بهذه الآراء والتعاليم والقيم التي يدعو لها الإسلام؟ هم قد تركوها واتبعوا قيمًا ما أنزل الله بها من سلطان! هؤلاء لن يهديهم أحد لإعراضهم، وقلة أدبهم، وتطاولهم، وسفاهتهم، وخستهم، وكذبهم، وإثمهم، وخطاياهم.

كونوا إذًا أيها المؤمنون في موقف المعتد بالله القوي به، لا في موقف الضعيف المتردد المدافع! فأقوال أولئك كلهم تخالف الرب، وتخالف الشرع، وتخالف الفطرة البشرية التي فطر الله تعالى النفس عليها. **كيف إذًا تهتزون لكلامهم، وتخافون من ترديدهم هذا الكلام، لا يهولنكم ذلك أبدًا.**

العلمانية = اللا دين

وهذه السورة ما تركت شيئًا في قضيتنا التي نحن فيها إلا وبينته، قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٣- ٢٤].

وهذه الآية تشير في ضمن ما أشارت إلى مبدأ العلمانية بذاته، فكأنها نزلت لتقول هؤلاء علمانيون، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿ **وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا**

حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ والعلمانية تقول ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، هذا هو مبدأ العلمانية.

فإذا سألك السائل ما هي العلمانية التي تعترض عليها؟ قل له: العلمانية وهي Secularism: أي الدنيوية، أي اللا دينية، وهذا تفسير الكلمة عند الكفرة في معاجمهم اللغوية، بمعنى أنه ليس هناك بعث ولا آخرة، وأن حياتهم محصورة بالدنيا، وأنهم يجب أن يأخذوا أقصى لذة ممكنة في تلك الحياة القصيرة، لا علاقة لهم بالدين في ذلك كله، فهذا مبدأ العلمانية.

وقد ألبسها المجرمون اليوم ثوب العلم بمعنى: science ، والعلمية التي يدعون الكلام بها هي: scientisme ، أما العلمانية فهذا المذهب اللادين، الذي يفصل الدين عن الأخلاق والسياسة والفن والثقافة، وكل مناحي الحياة.

فهذا المبدأ يفصل الناس في حياتهم عن ما يتعلق بالدين، وأن تكون حياتهم هي هذه اللذة العابرة في تلك السنين القليلة في الدنيا، فيستمتعون فيها بأقصى ما يستطيعون من متع، **ويعزلون فيها ما يمت للدين وللأخلاق والقيم بصلة، سواء من التشريع، أو الفكر، أو الأقوال والمعتقدات**، وأقصى ما يبيحه أولئك العلمانيون للمتدينين أن يكون دينهم فقط من خلال بيوتهم، وشعائرهم في مساجدهم، هذا إن كانوا متهاونين وسمحوا، وإن كانوا أشد

إجرامًا وأكثر إيغالاً في الفحش والفحشاء ومحاربة الدين فإنهم يغلقون كذلك مساجدهم، ويحاربونهم، ويصدونهم عن سبيل الله.

وهذا هو المبدأ الذي يروج له المجرمون اليوم بالتلبيس الذي نسمعه، **وكأن العلمانية التي يدعون أن تقوم الحياة على العلم والتكنولوجيا، والتقدم المدني، والتطور، وهذا أيضًا من التلبيس، وإنما مبادئ العلمانية وأركانها أن يقتصر اهتمام الإنسان على كل ما هو دنيوي**، وأن يفصل الدين عن الفكر والسياسة والعلم والأخلاق والقيم والمبادئ، فيجوز الكذب، والزنا، وكل شيء؛ لأنه قد فصل كل ذلك عن الأخلاق، وفصله عن الدين، فلما فصله عن الدين، كان الزنا جائزًا لأنه باتفاق الطرفين، وجاز الكذب لأن المصلحة التي يكذب في سبيلها هي المقدمة، ولا شيء في أن ينافق، أو أن يسرق طالما لم يتعدى حدود القانون الذي قد اتفق عليه الناس، ليس القانون الذي أنزل من الله تعالى، فلا علاقة للدين بذلك كله، فهو انحلال. ثم أقاموا المؤسسات السياسية- وهذا ركن من أركان العلمانية-التي تقام اليوم على فصل الدين عن الدنيا.

وقد بدء هذا المذهب في أوربا في العصور الوسطى عندما تحكمت الكنيسة والإقطاع في الناس، وأقامت لهم محاكم التفتيش، وقتلت مئات الآلاف بل الملايين من الخلق لمخالفتهم تلك التعاليم، وأنشأوا تلك المحاكم-

التي يلقون بها ظلمًا وزورًا على المؤمنين- في كنائسهم في العصور الوسطى ليحاكموا إليها كل من خرج بلفظ واحد عن الكنيسة، أو تكلم في العلم بمخالفة الكنيسة، أو تكلم في الحرية أو في السياسة بمخالفة الكنيسة، كان جزاؤه ذلك الذي قد سمعنا له ما يشيب له الولدان.

ثم جاءت الثورات لتفصل الدين عن العلم، لما سببه ذلك الدين - دين الكنيسة وأتباعها- في تلك العصور من ذلك الظلام، وذلك الظلم، وذلك القتل، وذلك الجهل، وتثبيت الخرافة، وتثبيت الأساطير، حتى كره الناس ذلك الدين وكان شعار الثورة الفرنسية المتطرف: اشنقوا آخر نبيل بأمعاء آخر قسيس، لينتهوا من كل أولئك مرة واحدة !

ونحن نوضح ذلك حتى يفهم المؤمنون الفارق بين هذين اللفظين، وكيف يدعون إلى فصل الدين عن كل شيء، وأن أقصى ما يسمحون لك به أن تكون مسألة شخصية بينك وبين ربك، لا تتعدى باب المسجد لتنظم هذه الحياة وفق منهج الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

وعي المؤمنون إذًا حقيقة قوله: ﴿ **وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾ الذي دلهم على حقيقة الواقع قبل أن يتقرر هذا الواقع بقرون عدة.

لذلك حاول هؤلاء طمس هذا المعنى هذه الأيام، ويشيعون بدلاً منه أنه العلمانية من العلم، كما ذكرنا من كلامهم، ومن كلام من يَفهم منهم في ذلك، ومن لا يفهم يعرف حقيقتها، ويُلبس ذلك على المؤمنين، بل قد **صرح كثير من أولئك المسلمين الذين مالوا إلى هذه الآراء الفاسدة التي تخالف الله وشرعه وتضاد شرع النبي ﷺ أن الدين مسألة شخصية، وأنه منحصر في المسجد**، وأنه ينبغي أن تكون العولمة -التي قد ظهرت أحداثها، هي ثقافة الجميع، أي أن تنحني كل الدنيا تحت هذا المبدأ الغربي الذي ينتشر بسلاح الفكر والسلاح العسكري ليُفرض على الكل! ثم مال بعد ذلك الكثير إلى استخدام لفظ مدنية ، تغطية وتمويهًا على كل ما سبق لما رأوا أن العلمانية لفظ منبوذ.

نعود إلى توضيح الآية ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا** ﴾ فقوله: ﴿ **مَا هِىَ** ﴾ يُسمى: ضمير الشأن أو القصة، بمعنى: القصة كلها أنه لا بعث، وإنما هي مجرد الحياة وتنتهي، وليس ثم بعث أو حساب بعد ذلك، ﴿ **نَمُوتُ وَنَحْيَا** ﴾ وكان السياق أن يقال نحيا ونموت، وإنما قدم الموت ليؤكد على قضية نموت فلا بعث؛ لأن مهمتهم أن

يقولوا ذلك، أنهم يموتون فقط من غير بعث ولا حساب، وذلك مبدؤهم اليوم في الغرب.

فهذا الرجل الغربي – وهذه قصة حقيقية- قيل له: لا بد أن تدفع أقساطًا، حتى نبني لك مدفنًا لندفنك فيه بعد أن تموت ، قال: لا تأخذوا مالي، دعوني، لا تدفنوني، بعد أن أموت انتهت حياتي، وليس هناك حياة أخرى، تدفنونني أو لا تدفنونني، لا تأخذوا أموالي، سآخذ هذه الأموال لأستلذ بها في الدنيا وانتهت، وصل بهم الحال إلى ذلك!

أساليب المجادلين بالباطل

يقول المولى سبحانه وتعالى بعدها: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ [الجاثية: ٢٥] فبعد أن أثبت لهذا الكلام أنه من كلام الله تعالى، وعجزوا أن يواجهوا الحجة بالحجة قالوا: ﴿ **ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ قالوا: إن كنتم صادقين أرجعوا لنا آباءنا، أرجعوا فلانًا وفلانًا ممن ماتوا، أرجعوا قصي بن كلاب، وقد كان رجل صدق في الجاهلية يخبرنا بهذا الذي تقول، وهل هو حق أو لا !

وقد يقول القائل أن الله تعالى قال: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ** ﴾ فالقرآن قال عليها حجة، أليس كذلك؟ لا، القرآن قابل تهكمهم بتهكم آخر عليهم، بمعنى: ألك حجة فيما ذكرت من قول؟ تقول:

نعم، حجتي أن تأتي بأبي الذي مات! أقول: هذه ليست حجة، إذًا لا حجة لك. فلما قال القرآن الكريم : ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾، فمعناها: ليس لهم حجة، أوهي على سبيل التهكم بهم كما هم يتهكمون، كما ذكر عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨].

قالوا يتهكمون:﴿ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ تلك عادتهم إذًا هذه الأيام، وهي المجادلة بالباطل، والاستكبار، ونفي الحجج، والإتيان بهذه القضايا، أن يمتحن المؤمنين، هل هم مؤمنون بهذه الأفكار أو لا، إن كانوا مؤمنين فإذًا يحق لهم أن يدخلوا تلك الأعمال السياسية التي يدعون، سواء كانوا هم أو المسلمين.

وهذه الآية الكريمة تبين المعنى المهم الذي ينبغي أن يواجه به المشركون والمبطلون، فهؤلاء إذا تليت عليهم الحجج الواضحات بأن هناك حياة آخرة، وأن هذه الحياة الدنيا زائلة، وأنه يجب أن يتبعوا الرسول، وأن يلزموا هديه، وأن يقتفوا أثره ويتبعوا سنته، إلى آخره، وتُفحمهم هذه الحجج وتلك البينات، **إذا بهم ينتقلون من مقابلة الحجة بالحجة إلى أشياء أخر!** وهو عهدهم وديدنهم من لدن نوح عليه السلام إلى يومنا هذا .

فتارة يستقبلونها **بالعناد والاستكبار:** ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ [المدثر: ١٦]، ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [المدثر: ١٦] فهم أصحاب الرؤية والفهم

والنخبة المثقفة ورؤية العقل، وأنهم هم الذين يقولون وينبغي أن يسمع لهم الناس، وأنهم قادة العمل الفكري والسياسي والتربوي، وغير ذلك من كلام بهلوانات ذلك السيرك.

ثم ينتقلون إلى **الاستهزاء** ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤]، **ثم التهكم والسخرية** كما ذكروا كذلك للنبي: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص: ٥]، وكما قال المولى فيهم: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الصافات: ١٢- ١٤].

ونهاية المطاف في مقابلتهم لمنهج الله تعالى وحججه وبيناته بعد التهكم والسخرية أن يقولوا: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦] انتهينا، ضاق صدرهم بالحجج، لم يستطيعوا أن يقابلوها بالحجة، ولا الفكر بالفكر، ولا البرهان بالبرهان، ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ ، ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، **النفي والإبعاد والسجن والتعذيب**، وكذلك قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، لئن لم تنته عن هذه الأفكار التي تتكلم عليها، عن الدين، واليوم الآخر، والعبادة لله

تعالى، والتحاكم بشرع الله جل وعلا وعن الآيات والبينات والحجج الواضحات ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾.

فهذه أساليب المشركين ومن تبعهم من المجادلين بالباطل من المسلمين وغيرهم من المبطلين، في استقبال حجج الله تعالى، عرضها القرآن كلها، ثم لقن الله تعالى نبيه الحجة، ولقنها للمؤمنين، ليتعلم المؤمنون كيف يواجه هؤلاء حجج الله تعالى وآياته فقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذا قول الله، وما قال الله لا ريب فيه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ﴾ والمقصد أن يرد عليهم ليس في قولهم: ﴿ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ ﴾ فقط، وإنما في قولهم: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ أي لا يميتنا إلا الحدثان، أي مرور الليل والنهار، مرور الأيام إلى الشيخوخة إلى الموت، أو العوارض التي تعرض للإنسان من مرض، من حادث، من غيره مما يموت بسببها الناس، هذه هي الدنيا، ليس هناك من يميت، وليس هناك بعث، وليس هناك حساب. وليس هناك إله، فقال لهم جل وعلا: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾.

وكان الأولى أن يقول السياق لما قالوا ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾: قل الله يميتكم وليس الدهر الذي يميتكم، لأن الدهر -الليل والنهار- لا يميت ولا

يحيي، ولكن الآية جاءت: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ إنما هو الله جل وعلا الذي يدبر الأمر من قبل ومن بعد.

وقدمت الآية الإحياء توطئة للإماتة: ﴿ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فالله أحياهم، وسيميتهم، وسيجمعهم إلى يوم القيامة؛ لأنه ستأتي الآيات التي تحذر المؤمنين والكافرين وغيرهم من سوء عاقبة ما تكلموا به أو ما اعتقدوه، لذلك قال: ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وليس المقصود أن يقول ثم يجمعكم إلى يوم القيامة وانتهى الأمر، ماذا استفاد المرء؟ قال بعدها عن يوم القيامة ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٧].

فالمؤمنون يحذرون هذا المعنى، فيعملون لهذا الموت، ويعملون لذلك الجمع في مدة الحياة الأولى التي ذكر الله تعالى، أحياهم فيها فعملوا ليوم مماتهم، وماتوا فجمعهم ليحاسبهم سبحانه وتعالى على ما قدموا وما أخروا، وحينئذ تأتي هذه الآيات استكمالاً لهذا المعنى، وتوضيحًا للإنذار الشديد الذي بعثه الله تعالى لأولئك جميعًا حتى يفهموا كلام الله، وحتى يستعدوا للقاء الله، وحتى يعلموا ما ينجيهم بين يدي الله تعالى من أسباب النجاح ومن أسباب الخسران.

الملك والأمر كله لله

وتأتي الآية التالية لتبين ذلك: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي، لا دهر يصرِّف، ولا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ملك حاز الدنيا وما فيها، ولا كبير ولا صغير، كلهم تحت تصريف الله وتقديره ، وهم مسيرون بتسييره سبحانه وتعالى، لا يسير شيء في الكون إلا بأمره، إذ هو الملك القادر على الإحياء والإماتة، لذلك قال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي: له هو وحده سبحانه وتعالى ذلك الملك، لا لغيره، ومن ثم ينبغي طاعته هو وحده، وطاعة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحده، وأن نعلم أن الإحياء والإماتة له وحده، وأن التصريف له وحده جل وعلا ، وأن ما يقع في الكون لا يقع إلا بعلمه، وبأمره سبحانه وتعالى، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأن المؤمن يجب أن يكون منقادًا لترتيب هذا الملك سبحانه وتعالى ، سواء في تراتيبه الشرعية التي أمر بها، لا بد أن يلتزم المرء بها التزامًا، أمرًا ونهيًا ، والكونية التي تنزل على المرء بدون اختيار منه، وهي القدرية التي يجب أن يسلم لها، وأن يعلم أنه عبد مملوك لربه، مربوب له، ليس لنفسه، ولا من نفسه، ولا بنفسه، ولا من غيره، ولا لغيره كائنًا من كان، ملكًا أو وزيرًا، رئيسًا أو غفيرًا ، له شيء في ذلك الملك، بل كلهم مربوبون تحت قدرته سبحانه وتعالى ، وجبروته، وعظمته، يسعهم عدله، وبسطه، ويخوفهم قبضه

وسطوته، وحينئذ يعلمون أنهم كما هم مملوكون لله تعالى أن يصرفوا ذلك الملك كله لله؛ فيصرفوا أنفسهم، وأموالهم، وأوقاتهم، وصحتهم، وما يقع تحت ملكهم، لله جل وعلا.

وهذا رد آخر على أولئك القائلين أن الدنيا هي نهاية المطاف، أو أن الدهر يصرف، أو أن الطبيعة هي التي تخلق، أو غير ذلك من **هذه المذاهب الوضعية التي أخذت بأبصار المؤمنين، وساروا وراءها كالقطيع الهزيل الذي لم يستفد من كلام الله شيئًا**، ولم يَثبت على شريعة الله شيئًا، ولم يستضيء بنور الله ونور النبوة شيئًا، حتى يكون ذلك سببًا لثباته على هذه الشريعة، وتمكنه منها، والسير تحت رايتها، وحيث أدت به رايتها سار تحتها، لا ينعق مع كل ناعق، ولا يقول بكل قول، وإنما هو ثابت مع ربه سبحانه وتعالى يصرفه كيف يشاء، ثابت على بابه، لا يتزحزح، يطلب رجاءه وقوته ومدده، ثابت مع ربه سبحانه وتعالى، يستمد منه المدد والقوة على ما يقوم به لأمر الله وفي سبيل الله.

سوء عاقبة المجرمين

ثم جاء الإنذار بسوء عاقبة هؤلاء المجرمين، فقال: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٧]، فهؤلاء المبطلون الذين ذكر الله تعالى أول باطلهم وهو الشرك بالله تعالى، ثم يتدرج البطلان والباطل درجات، وهذه الدرجات التي يتدرج لها هؤلاء المبطلون إنما هي كذلك

درجاتهم في الخسارة التي يخسرون بها يوم القيامة، **كلما أمعن في الباطل ازداد خسرانًا** حتى يصل إلى قمة الخسران في أن يشرك بالله، وأن يختار شرعًا غير شرع الله، وأن يقف تحت راية غير راية الله سبحانه وتعالى ، ثم يتنزل بعد ذلك إلى الفسق والمعاصي والمصائب التي ينقسم تحتها ذلك الباطل الذي يعتقده، سواء في فكره، سواء في معتقداته، سواء في أقواله، سواء في تصرفاته، فهؤلاء المبطلون الذين ذكر الله تعالى يقفون يوم القيامة وقد جاءهم هذا الإنذار حيث يقول:﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية: ٢٨].

وهي المفزعات التي ذكرها القرآن الكريم، أي الآيات التي تجعل المرء يفزع إلى الله تعالى ، **وينظر في أحواله، وأقواله، وتصرفاته، واعتقاداته، ليرى كمّ الخسارة الذي سيصاب به يوم القيامة، ولن ينجيه أحد بينه وبين يدي الله تعالى**، وهي إنذار كذلك لأولئك المشركين عندما يأتون الله تعالى يوم القيامة الذي كذبوا به، ويحاسبون على ما نفوا من بعث وحساب إلى آخر ما اقترفوا من سيئات وخطايا في حق شرع الله تعالى وفي حق المؤمنين. لذلك يقول : ﴿ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٧].

والقول الأول في قوله: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ أن الخطاب فيه موجه للنبي ﷺ يقول: سوف تراهم جثاة، أي: باركين على الركب، وهي جلسة المستنفر، ﴿ كُلَّ أُمَّةٍ ﴾ والأمة هي الجماعة العظيمة التي أتاها رسول بكتاب،

كل أمة عظيمة لها كتاب تأتي جاثية على ركبها في هذا الهول العظيم الذي قد صوره القرآن في صورة تشيب لها الولدان.

وهذه الصورة ينبغي أن يتفكر فيها المؤمنون اليوم؛ ليراجعوا بطلانهم وباطلهم في القول والفعل والاعتقاد والعمل والتصرف والسلوك، ليراجعوا كل ما خالف ربهم، ونبيهم، وكتابهم، **وليراجعوا كل ما وسوست به أنفسهم من سوء، وما قاموا به من سوء، وما يقومون به، وما هم مصرون عليه، وما لم يتوبوا منه**، قبل عرض كتابهم على الله تعالى.

فمحاسبة المرء نفسه اليوم إنما تكون بتقدير هذه الخسارة التي ستلحقه قطعًا إلا أن تدركه رحمة الله، وإلا أن يكون عنده النية في التوبة منها، أو عنده ذلك الإحساس بالضيق والحزن على أنه يخالف أمر الرسول، وأن الهوى والشيطان والدنيا أقوى منه، ولكنه يحاول أن يصد ذلك، وأن يبعده عن نفسه، وأن يقف على حدود الشرع وأوامره، لا يتعداها إلى الخسارة، والباطل، والمعصية، والإثم، وإلى تلك الخطايا ظاهرًا وباطنًا.

إذًا علاج اليوم أن يقف المرء ليقول: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾، ويقف بينه وبين ربه ليرى على أي حال، أو على أي نحو تكون خسارته، وعلى أي حجم بلغت هذه الخسارة، خاصة وأنه ما زال في

الدنيا يمكنه الاستدراك وتعويض ما فات من الخسارة، إلى أن يتزن إلى ما يكون نجاة ومكسبًا له عند مولاه يوم تجثو هذه الأمم على الركب.

والقول الثاني في ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ ، أن خطاب لكل أحد غير معين، فكل سوف يرى ذلك، ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ [الجاثية: ٢٨] فهذه الأمم العظيمة تدعى إلى كتابها.

وكتابها هنا يحتمل معنيين ، إما الكتاب الذي أرسل إليها يعرض عليها، ويقال: ماذا فعلتم في هذا الكتاب، فيعرفون ماذا فعلوا وفي ماذا قصروا، وماذا جنوا، ويعرفون هل وقفوا عند حدوده أو لا، تعدوا حدوده أو لا، ويعرفون منه ما خالفوا فيه، وما وقعوا فيه، وما ائتمروا به، وما لم ينتهوا عنه، إلى آخره.

والمعنى الثاني: ماذا يفعل هذا الكتاب، وهي من باب قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، ومن باب قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] ، ويكون معنى الكتاب هنا أن كل أحد يؤتى كتابه، ويطلع على ما قدم هو وأخر بنفسه كما ذكر الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.

وقد يأتي السؤال: كيف فعل ذلك هذا الكتاب؟ لذلك جاءت تكملة الآية، وهو استئناف بياني لمقول القول المحذوف، كيف ذلك؟ يقول: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، كل ما كنتم تعملونه نكتبه لكم كما هو، مكتوب وموجود عند الله تعالى، فينظر المرء في كتابه، ليس بينه وبين الله ترجمان، فالمؤمن يقول له: عملت كذا يوم كذا وكذا، وعملت كذا يوم كذا وكذا، حتى إذا ظن أنه هالك يقال له: قد سترتها عليك في الدنيا واليوم أغفرها لك. فمن يود أن يغفر الله له في الآخرة وأن يستر ذنوبه في الدنيا، فليقلع عما هو فيه، ويستشعر الحزن والخوف أن يغضب ربه، أو أن يخالف رسوله ﷺ، ويدعو الله تعالى أن يعينه على أن يقلع عما هو فيه من ذنوب ومعاصي ليسترها عليه سبحانه وتعالى في الدنيا ويكون ذلك سببًا للمغفرة يوم يلاقي الله تعالى في الآخرة.

ثم بينت الآيات حال المتقين حين سمعوا ذلك عن الله تعالى، قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الجاثية: ٣٠]، والمخالفون لهذه الآيات: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الجاثية: ٣١].

إذن فهذه الآيات هي آيات التحذير والتخويف، وينبغي على المرء الوقوف ليرى المكسب والخسارة قبل الجثي يوم القيامة على الركب، وقبل أن يقال له: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ﴾ .

لا ينطلقن أحد إلا وقد نظر في مكسبه وخسارته وحاول أن يحزن شيئًا ما، وأن يظهر ذلك الحزن لله تعالى لعله يفيض عليه سبحانه وتعالى بشيء من الرحمة تجعله أهلاً لرحمة الآخرة بأن يتوب عليه، ليحقق شروط التوبة المقبولة المتبوعة بصالح الأعمال والفوز فيها، **وألا يقصر فيما هو عليه اليوم حتى لا يزداد شطط الكافرين والمنافقين والجاهلين**، وعلوهم واستكبارهم على أهل الإيمان، حتى يستطيع المؤمنون أن يرفعوا شر البلاء النازل بهذه المحاسبة وتلك المعرفة للمكسب والخسارة، والمسارعة بالتوبة والأعمال الصالحة في دفع ذلك الشيطان وتلك الأعمال السيئة التي أوصلتنا إلى هذه الأحوال.

لا بد للمرء أن يقف مع نفسه هذه الوقفة الآن ، لو قام ساعة أو نصف ساعة في هذه الحياة الدنيا في اللهو والكلام والقريب والبعيد والمشي والركوب والأكل والشرب وغيره، ذهبت منه هذه المعاني، فليجلس تلك الساعة ليحاسب نفسه كما كان الصحابة يفعلون، فلعلها تكون ساعة رفع البلاء عن أمة محمد ﷺ، أو أن تكون ساعة إزالة هذه المنكرات والمصائب الحالة بنا.

طريق التقوى

وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩] فنعود لهذه الآية ونقف معها قليلًا؛ لنتعلم كيف يستقبل المؤمنون آيات الله، وما تحفل به من المعاني في أنفسهم وفي الآفاق، وكيف يواجهون كلمات الله تعالى وأوامره ونواهيه، كيف يستقبلونها بالتقوى؟ لأنهم أولياؤه، وكما قال: ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، لذلك نبين ولاية الله للمؤمنين المتقين الذين اتبعوا شريعته ولم يسمعوا لأحد غيره، والتزموا نهج النبي ﷺ وساروا عليه.

فكان لزامًا أن نشير إلى صفات هؤلاء المتقين الذين استقبلوا تلك الآيات وتلك الشريعة بتقوى الله تعالى، وتعاملوا مع ذلك الواقع بتقوى الله تعالى، وتعاملوا مع أولئك المخالفين المعاندين المستكبرين المستهزئين الكذابين الأفاكين الخطائين كذلك بتقوى الله تعالى، إذًا مصيرنا ومطلوبنا هو كيف نفهم ونحقق ما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ؟

فقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ **إنذار، وتحذير، وبشارة للمؤمنين**، أن طريقهم طريق التقوى؛ ليتحققوا بولاية الله تعالى، ليس طريقهم طريق أولئك، **بل طريقهم الذي ينتصرون به على أولئك وهؤلاء ومن في الأرض جميعًا هو طريق التقوى**، الذي لا بد من سلوكه، والالتزام به، والسير على طريقه، إذ

تلك شريعة الله التي هيأها لمسير الناس فيها، كما هو معنى شريعة في لغة العرب.

المؤمنون إذن لن يقصروا أبدًا في أن يكونوا من المتقين، ولن يسمعوا آيات الله وهو يقول لهم: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ثم تمُر عليهم والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته وانتهت! وإنما يقول لهم ذلك ليكونوا هم من أولئك المتقين، بل ليكونوا أول المتقين وسادتهم، ليكونوا في محل سماع كلام الله سبحانه وتعالى، وطاعته، والائتمار بأمره، والالتزام بما طلب منهم سبحانه وتعالى، لا يعلمون أبدًا أن أولئك هم المتقون ثم يقولون اذهبوا إن أردتم أن تكونوا أتقياء نحن هاهنا قاعدون نسمع ولا نتعظ، ونسمع ولا ننتفع !

<u>التقوى: أن تجعل بينك وبين ما تخاف من عذاب الله وعقابه وقاية</u>

ونشير إلى معنى التقوى ، ثم نوقع معان من معاني التقوى[1] على هذه الآية التي قال فيها: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، فليس المقصد أن نشرح هذه المعاني وإنما المقصد أن نصل إلى حقيقة التقوى ثم نبين ما علاقة ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ حتى يخرج

---

(١) للتوسع في معاني التقوى يرجى للطلاع على رسالة "التقوى في القرآن الكريم" وهي رسالة ماجستير مطبوعة لفضيلة الشيخ / محمد الدبيسي تشرح بالتفصيل هذه القضية.

الناس من الحيرة التي هم فيها اليوم، أهي مدنية؟ أهي ديمقراطية؟ أهي دينية ؟ أهي مدنية ذات مرجعية إسلامية؟ أهي أهي؟

ومعنى التقوى في لغة العرب أن تجعل بينك وبين ما تخاف من عذاب الله - تعالى - وعقابه وقاية تقيك هذا العذاب وهذا العقاب، . فإذا قلنا: فلان يتقي النار أي يجعل بينه وبين ما يخاف من عذاب النار وقاية تقيه هذا العذاب، لذلك قال الله تعالى: ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ** ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقال النبي: (**اتقوا النار ولو بشق تمرة**) [1] أي اجعلوا بينكم وبين النار وقاية تقيكم منها، ولو أن تتصدق بشق تمرة تكون سبب إبعادك عن هذا العذاب، أو وقوعك في هذا السخط من سخط الله تعالى.

وجاءت التقوى ملحقة بكثير من المفردات؛ أولاها: ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ** ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ** ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿ **وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقد جاء هذا التنوع ليحمل المؤمنين بكل وسيلة على التحقق بتقوى الله تعالى.

فالمعنى: أن تجعلوا بينكم وبين ما يمكن أن تتعرضوا له من عذاب الله ومن غضبه وقاية تقيكم هذا العذاب، وهذه الوقاية التي تقيكم هذا العذاب

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة، فبكلمة طيبة).

هي: الإتيان بالأوامر، والانتهاء عن النواهي، والقيام بالمستحبات، والانتهاء عن المكروهات، وأن يكون المباحات في حقه قربات بالنيات الصالحة، وأن يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

وهذا المعنى هو الذي جاءت عليه بقية الأوامر بالتقوى، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فاليوم نفسه لا يتقي ولا شيء، وإنما يتقي ما يقع في هذا اليوم، فلا يمكن أن نقول: اتقِ يوم الأربعاء، إلا أن يكون يوم الأربعاء هذا سوف يحدث فيه شيء ينبغي أن تتقيه، فتجعل بينك وبين ما يقع في هذا اليوم العصيب من عذاب وغضب وأن تدنو الشمس من الرؤوس وما لا يمكن أن يتحمله البشر في هذا اليوم، اجعلوا لأنفسكم وقاية تقيكم هذا العذاب، والوقاية هذه كما ذكرنا: أن يأتمر بالأوامر، وينتهي عن النواهي، وأن يقوم بالمستحبات كافة، وأن يترك المكروهات، وأن تكون المباحات في حقه قربات وطاعات، وأن يترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس. وحتى ما ورد من كلام النبي ﷺ: (**فاتقوا الدنيا**)[1] أي **اجعلوا بينكم وبين ما يكون سبب هلاككم في**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها . فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء).

الدنيا وقاية تقون بها أنفسكم، هذا الشر وهذا العقاب الذي إن ملتم وقعتم فيه، (فاتقوا الدنيا) أي: اتقوا ما يكون من الدنيا سببًا لغضب الله تعالى، ويكون ذلك بالزهد فيها، والعمل للآخرة، والاستعداد للقاء الله.

وقوله ﷺ: (واتقوا النساء) [1] أي **اجعلوا بينكم وبين النساء المحرمات عليكم وقاية، تقيكم من أن تقعوا فيما حرم الله جل وعلا**، من غض البصر، وحفظ الفرج، وغيره من أمور التقوى التي تقع في الواجبات، وفي المحرمات، وفي المستحبات، والمكروهات، وفي المباحات وفي غيرها من المشتبهات، وترك ما لا بأس به كما ذكرنا .

وللتقوى درجات، وهي بالتدريج: أن **يتقي الكفر، ثم البدعة، ثم المعصية؛** فيتقي الكفر بأن يسلم لربه، وأن يقيم حدوده، وأن يلتزم أوامره، وأن يبتعد عن نواهيه سبحانه وتعالى ، إلى آخره. والبدعة كذلك؛ أن يضع بينه وبين البدعة وقاية باتباع السنة، والتزام كلام النبي ﷺ، وعدم الخروج بالزيادة أو النقص على هذه الشريعة المكرمة: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا** ﴾.

وتقوى المعصية أن تجعل بينك وبين المعصية وقاية تقيك عذاب الله تعالى فتترك المعاصي، وترجع إلى الله، وإن وقعتَ فيها تبت إلى الله تعالى .

---

(١) سبق تخريجه قريبا.

المتقون المتمسكون بالشريعة لا خوف عليهم

بعد هذه المقدمة: ما علاقة التقوى بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وما علاقة: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ بهؤلاء المتقين؟

نقول: هذه جزئية من جزئيات التقوى، فإذا كانت التقوى تشمل كل المعاني التي بيناها، **فمن أجزاء التقوى المهمة التي نبه عليها المولى سبحانه وتعالى** ونبه عليها الرسول ﷺ ما اشتملته عليه هذه الآيات، من **اتباع المتقين للشريعة مع يقينهم وعدم خوفهم من عاقبة ذلك** ولا ممن يخالفونهم من الظلمة المجرمين.

ومثل ذلك قول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٧] فالإحسان جزء من التقوى، ولا يكون المؤمن تقيًا إلا أن يكون محسنًا، فلما قال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ مع أنه قد قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ كان ذلك لأهمية الإحسان في هذه الآية، فاستخرج الإحسان وحده من التقوى؛ لينبه عليه في هذه الآية الكريمة.

وهو الحال بالنسبة للشريعة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ فالشريعة هي الجزئية المهمة من التقوى هنا، والمؤمنون

المتقون - كما قال الله - **مطالبون بالتمسك بهذه الشريعة، فهم مستمسكون بها، ثابتون عليها، لا يترددون في الأخذ بها، والثانية: أنهم متبعون لأوامرها، ملتزمون بكل ما جاء فيها عن الله تعالى، والثالثة: أنهم يدعون إليها، ولا يهمهم قول قائل، ولا يفل في عضدهم**، ولا يخافون، ولا يحزنون من أن يقال كذا وكذا، وإنما هم ثابتون على أمر الله وشريعته سبحانه وتعالى لماذا؟ لأنهم متقون، لماذا؟ لأن الله وليهم، لماذا؟ لأن ولاية الله تمنع عنهم ما يحزنهم أو يخيفهم فضلًا عما يضرهم.

فالمؤمنون الذين يواجهون اليوم هذا الواقع المر، مطالبون بتقوى الله تعالى، لأن الله جل وعلا قد جعل - في نهاية هذه الآية - ولايته للمتقين، وهو ما نسميه عاقبة التقوى، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ فهو سبحانه وليهم، وما معنى ذلك؟ قال في الآية الأخرى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣].

إذًا هؤلاء المتقون مطلوب وجودهم اليوم، ومطلوب لكل مؤمن أن يصل إلى هذه الدرجة من التقوى، لماذا؟ **لأن هذه التقوى تنفي في الدنيا والآخرة الخوف والحزن الذي يكون سببه الاضطراب، وسببه التحير**، وسببه الوقوع فيما يفهم وما لا يفهم، وسببه تكاثر أعداء الله على المؤمنين، وسببه

تلك الضبابية التي تحيط بأعمال المؤمنين، **حتى يظن المرء أن الأمر قد اسود في وجهه، وأن أولئك المجرمين سوف يكتسحون المؤمنين، وأن أصواتهم تلك العالية التي رفعت سوف تأخذ المؤمنين كرة واحدة، وأنهم لن يستطيعوا أن يبقوا أو أن يحافظوا على دينهم**، إلا أن يكونوا هم وقود هذه الدنيا في السجون والمعتقلات وغيرها، قال: لا، هؤلاء المتقون الله وليهم ، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

فإذا وقع بهم ما تظن أنه يمكن أن يخيف، أو أن يجعلهم مضطربين، أو متحيرين، أو كذا أو كذا من أقصى درجاتها إلى أقل درجاتها، **لا تخف عليهم**، وهذا معنى: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ حدث لهم كذا، وقيل عنهم: كذا، وقالوا: كذا، وقالوا: كذا، يقال له: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إن كانوا متقين، لأن الله سبحانه وتعالى وليهم، وكذلك ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فعندما يتركون الدنيا إلى الآخرة لا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، وسيعوضون به عند موتهم، وفي بعثهم، وعند لقاء الله تعالى.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ لم يشترط الإيمان فقط؛ لأنه لا يكون تقوى بغير إيمان، وإنما المطلوب هو التقوى الزائدة على الإيمان، لذلك قال: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ

﴿ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم مؤمنون، لا كلام فيها، ولا تردد، وبالتالي المقصود هو التقوى، وليس الإيمان.

والمتقون، قال فيهم: ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤]، **ومعنى أن الله تعالى وليهم، أنه سبحانه وتعالى ناصرهم، ومؤيدهم، ومعينهم جل وعلا ، وأنه يحقق لهم النصر، ويحقق لهم التأييد، والمعونة، ويقف إلى جوارهم، فلا يخافون ولا يحزنون.**

علمنا إذًا موقف المؤمنين الذي ينبغي أن يكون موقفنا اليوم، وكل يوم من قضية الشريعة، ومن الظالمين المعارضين لها، وأن ذلك داخل في ولاية الله تعالى للمؤمنين، وفي ولاية المؤمنين لله تعالى. وإذا كان ذلك داخلاً في ولاية الله للمؤمنين فإنه خارج عن ولاية الظالمين، لنتبين ما يتبعه المتقون ليكونوا متقين من أولياء الله، وما يتركونه ولا يقبلون عليه كذلك؛ ليكونوا متقين.

اليقين طريق الولاية وأعلى درجات الإيمان

ثم قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ونشير إلى معنى ﴿ هَـٰذَا ﴾ فهي: إما أن يكون ما سبق، أي: ما سبق من الآيات، وما سبق من حديث الله تعالى، وما سبق مما بين الله تعالى من نعم يشكر عليها سبحانه وتعالى، أو هذا: يقصد به القرآن الكريم كما قال: ﴿ هَـٰذَا هُدًى ﴾.

وقوله: ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ أي: أولئك الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم إذا أرادوا بينة، فهذه البصائر قد وجدت، فلا حجة لهم، ولا عذر يقيمونه على عدم اتباعها، وإذا كان البصر هو الرؤية بالعين، فإن البصيرة هي عين القلب التي يطالع المرء بها عن الله، ويفهم بها عن رب العالمين سبحانه وتعالى والتي تفتح العقل والقلب لتصديق الرب سبحانه وتعالى، وهذه قد هيأها لكل أحد، لذلك قال: ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ، **أما الهدى والرحمة فإنما هي للموقنين منهم**، وهو أعلى الإيمان.

ثم تبعها قوله جل وعلا: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي كل الذي سبق ليستفيد منه المؤمنون، ومن تنزل عليه القرآن، ومن سيسمعه إلى يوم يبعثون. إذًا تلك الآيات هي الهدى الذي به يهتدي أولئك، والذي به يسيرون في نعمة الله تعالى، إلى أن يصلوا إليه سالمين، وهذا الهدى هو هداية القلب والبدن للسير على مقتضى شرع الله تعالى، وهو هدى لهذه العقول لتستنير بنور حديث الله تعالى، ولتستضيء بآياته التي أنزلها، وتشكر الرب سبحانه وتعالى على تلك الآيات، فتصرّف هذه النعم، وتلك المنن من الله تعالى في طاعته، وعبادته، والدعوة إليه، ورفع رايته.

﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ فإن تحققوا بهذا الهدى، تحققت لهم الرحمة، وهذه الرحمة: في الدنيا أن يسيروا في بركة الله تعالى وأن يسيروا في حفظ الله تعالى، وأن يكلئهم

بكلئه جل وعلا، وأن يكونوا مرحومين برحمته، ومن رحمته سبحانه وتعالى صلاحهم في الدنيا، وكذلك فوزهم في الآخرة.

والمؤمنون في حاجة اليوم إلى هذا المعنى: معنى الهدى، ومعنى الرحمة، ولكنهم مفرطون فيه، فهم فرطوا في القدر الأعظم مما يجب أن يكونوا عليه في علاقتهم بشرع الله تعالى، وحديثه، وآياته سبحانه وتعالى. فالمفرطون فيه يفرطون في حق أنفسهم، وفي حق دينهم، وفي حق رسولهم، وفي حق كتابهم، وفي حق ربهم سبحانه وتعالى.

لذلك قال: ﴿ **وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ لقوم قد علا إيمانهم، وبعُد الشك عنهم، لقوم في أعلى درجات الإيمان؛ فاليقين هو أعلى درجات الإيمان التي إن أيقن لا يتشكك، إن أيقن ثبت واستقام سيره، إن أيقن انشرح صدره، ونعمت بصيرته، وصار وليًا من أولياء الله تعالى كما ذكر: ﴿ **وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الجاثية: ١٩].

هذا بصائر للناس، وهذا هدى ورحمة ﴿ **لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ فهو للموقنين من المؤمنين. فيصلون إلى الإيمان، ثم يتجردون، ويرتفعون إلى اليقين ويسيرون به، وهي مهمة صعبة على المؤمنين الذين مالت بهم الأهواء، والغفلات، والشهوات، والدنيا، والغفلة، إلى تلك الأحوال التي وصلنا

إليها، ومن ثَم كان المستمسكون بهذه البصائر عاضين على أمر الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ، نصرة لدينهم، ونجاة لأنفسهم.

إذًا هذه مهمة لأهل الإيمان أن يفهموها، وأن يسيروا بها، ونحن نشرح سريعًا للنظر في تلك الآيات؛ لأنها استغرقت كل الأحوال التي نحن فيها اليوم، وفي الأمد المنظور لم نتحول عنها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا بتلك الرحمة، وذلك اليقين، إلا بذلك الهدى، وذلك النور الذي أرسله الله تعالى.

ماذا أفعل في هذه الأيام؟

أن تكون التقوى -قولًا وفعلًا -هي شعارك في هذه الأحوال التي نحن فيها، وفي هذه الأيام التي تمر علينا، وفي تلك الأحداث التي تتوالى تباعًا، تقوى الله تعالى هي التي **تضعها نصب عينيك، لتحقق بها شرع الله،** ولتهدي بها إلى دين الله، ولتكون بها من أوليائه، ولتحقق بها عدم الخوف والحزن الذي هو سمة من سمات أوليائه، وأثر من آثار ولايته سبحانه وتعالى.

فالأمر الأول: الذي يقابل به المؤمنون آيات الله في قوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ** ﴾ أن يقابلوا ذلك - كما ذكر سبحانه وتعالى - **بالبكاء عند تلاوته وقشعريرة الجلد ووجل القلب عند سماع هذه الآيات،** فتقشعر جلودهم لذكر الله تعالى لما ورد من الحق، وتفيض أعينهم كما بين سبحانه وتعالى من الدمع، وترق قلوبهم وتخاف

وتخشع لهذه الآيات التي يسمعون، تلك مهمتهم اليوم، كيف يخافون أن يكونوا من أولئك المقصرين.

ونحن مقصرون ـ السامع والمتكلم ـ سواء في الدين، وفي العمل له، أو في الدعوة إليه، أو في الاجتماع إليه، أو في البذل له مالاً ونفسًا، وقتًا وجهدًا، أو غير ذلك، فقد اعترانا التقصير من أخمص القدم إلى أعلى الرأس، وخذ عندك من التقصير بينك وبين ربك، ما تعرفه، وما تخشى أن يطلع عليه الناس في دينك، وعبادتك، ولهوك، ومعصيتك، وبعدك، وغفلتك، وعدم تجهيزك زادك للقاء الله تعالى .

وذلك يبعث المؤمنين على الخوف، فهم خائفون من أن يعرضوا على ربهم لما هم فيه من تقصير لعدم القيام بحقوق العبودية لله تعالى، وبحقوق الدين التي أمرهم بها سبحانه وتعالى، فهم واقعون في الخوف الذي يشعرهم بذلك، وذلك لا يتنافى مع قوله تعالى: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾، فهم لا يخافون مما يتعلق بغيرهم من الناس، أو الدنيا وما فيها كلها، فلا يخافون فيها من شيء، وإنما إن خافوا، خافوا من تقصيرهم، وتفريطهم، وعدم قيامهم بحق ربهم سبحانه وتعالى.

كيف يمكن تعويض هذا التقصير والتفريط في حق الله تعالى؟ **وهو الأمر الثاني: أن يقوموا ليلهم**، يبكون ويتضرعون عندما يتلون آيات الله، ﴿ **أَمْ حَسِبَ**

ﭐلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

وبالتالي **يكثرون تلاوة آيات الله تعالى حتى تصل بهم الحال إلى رقة القلوب، ودمع العيون، وقشعريرة الجسم** حتى تلين هذه القلوب، وتخبت وترجع إلى الله تعالى، ذلك ما ينبغي أن يكون ديدنهم هذه الأيام في علاقتهم بالله تعالى ، المقصر فيها كما رأينا مقصر في أمور التقوى، مائل عنها، قد ارتفعت عنه ولاية الله، وينذر ذلك بسخطه وعقابه في الأولى والآخرة.

الأمر الثالث: وهو ما أشرنا إليه في بداية الكلام، وهو **اتباع سنة النبي ﷺ بإحسان**، فاتباع المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، من السلف هو المقصود الذي أمر به النبي ﷺ ورضي المولى سبحانه وتعالى عن أصحابه، وبالتالي كان معنى **الإحسان خليقًا بأن يتفكر فيه المؤمنون، وأن يسعوا إليه، وأن يدعوا الناس له**، وكذلك جديرًا بأن يدافعوا عنه، وأن يثبتوا عليه، وأن يعلموا أن ما سواه باطل، ومآله إلى الزوال.

وبعد أن يلتزم الناس هذا الطريق، يقولون ماذا بعد؟ حينئذ يكون قد فتح الله تعالى بشيء آخر يسيرون فيه، وبعلم آخر يهتدون به، وبسلوك آخر يسلكونه حتى يصلوا إلى الله تعالى سالمين متقين أولياء محسنين.

الفهرس

مع ما نحياه من أحداث متلاحقة في هذه الأيام ، وما يحدث من صد للناس عن الشريعة واستهزاء بالداعين لاتباعها، كان ينبغي النظر في ما نزل من كلام الله تعالى ومن سنة النبي ﷺ في الأمر باتباع الشريعة لنتبين الطريق للخروج من هذه المصائب والفتن التي حلت وكذلك لنتبين كيف يتعامل المرء مع هذا الواقع المر .
وقد جاءت آيات سورة الجاثية المتعلقة باتباع الشريعة لتبين لنا حقيقة الواقع الذي نحياه وكأنها نزلت اليوم، فقد جاء موقعها فريداً في هذه الأحداث التي نمر بها، فهي فتبين الداء، وتضع الدواء، وتصف الحالة التي تمر بالمسلمين، وكذلك ما يتعلق بغيرهم وتبين طريق المعاملة الأمثل لهم في تلك الأحوال ، وتبين كذلك عاقبة المؤمنين، وعاقبة غيرهم، وتبين حال أولئك الظالمين، الذين بعضهم أولياء بعض، وأن تلك الولاية زائلة؛ لأن ولاية الظلم ساعة، تنتهي بانتهاء ما اجتمع عليه الظالمون، أما المؤمنون فقد اجتمعوا على الله تعالى، فهم متواصلون إلى أن يلقوا ربهم جل وعلا في الآخرة.

الخير للطباعة ت : ٠١٠٠٢٥٩٩١٢٢